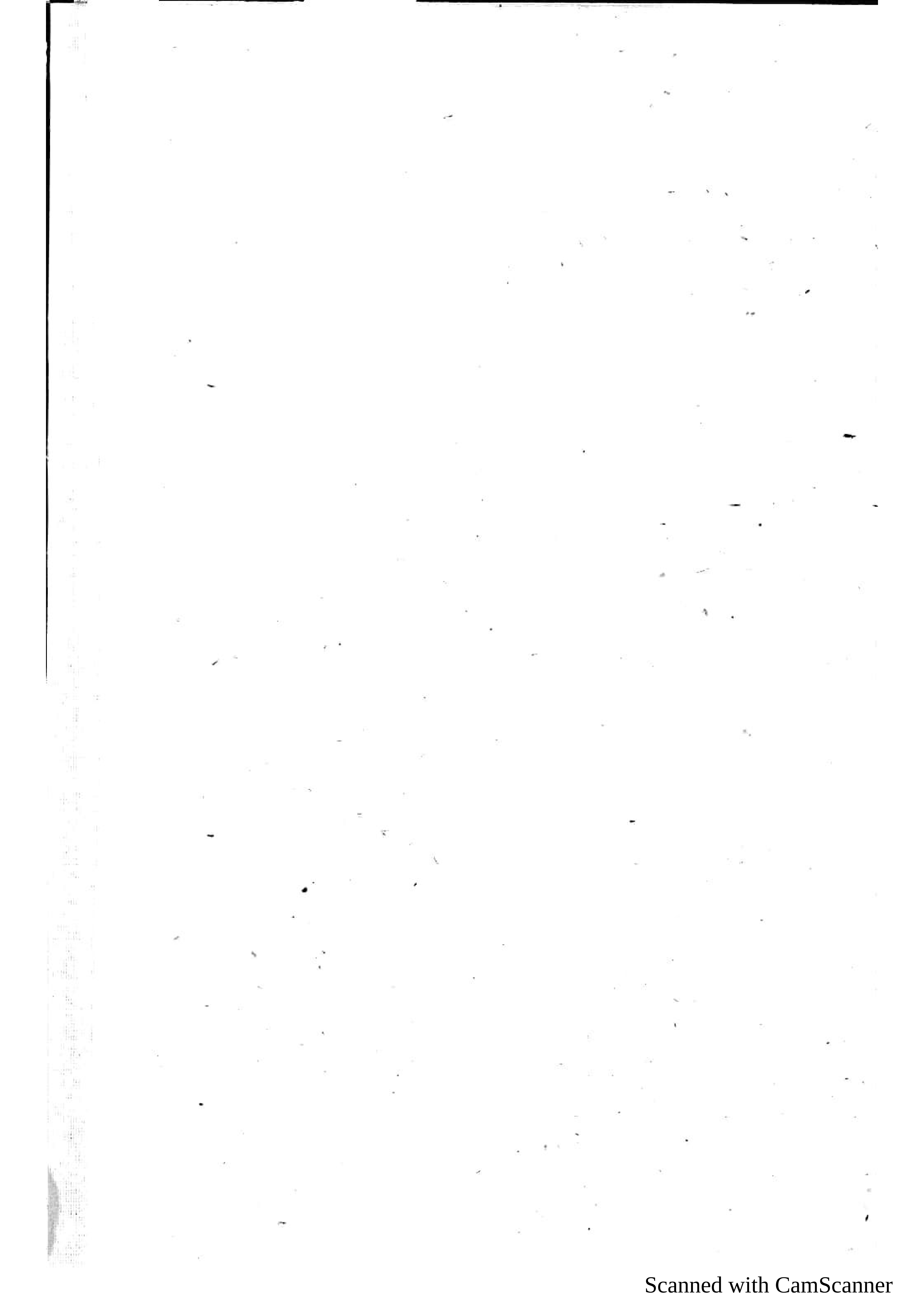

دستويفسكي
ترجمة صوفي عبد الله
المساكين
كتاب اليوم
الثمن ١٠ قروش



دستويفسكي

المساكين

ترجمة صوفي عبد الله

مقدمة المعرّبة

قارئا ما قرأ الانســــان فى قصص المشرق والمغـــرب ، فى القديم والحديث . وأيا ما كان رأيه فى مراتب الفنون وفى مكان القصة من دولة الأدب الرفيع ، فان نتـــاج عبقـرية « فدور دستويفسكى » من القَصص ، ومن القصص الطويل على وجــه الخصوص ، سيبقى الى آخــر الزمان ذخرا من اثمن ما تعتد به الآداب العالمية على اطلاقها

بيت الموتى ..

الجريمة والعقاب

الاخوة كرامازوف

قليل من كثير عرفه العــالم لقلم ذلك الكاتب الروسى النابغة، الذى سما بأدب القصة الى افق يساوى عظمة شكسبير الخالقة فى دنيا الشعر .

فاذا قيل دستويفسكى ، قيل فخر الانسانية وذخرها جمعاء، ولا يأتى ذكر وطنه الروسيا الابعد ذلك النسبَ العام . ولــكن الرجل عبقرية روســية بقدر مافيه من عبقرية انسانية شاملة، لأن عناصر تكوين أمتــه مكتملة فيه كل الاكتمال ، وفى شخوص رواياته صورة صـــادقة لذلك الشعب بتوفزه العصبى وتحفزه وعمق انفعالاته واجتماع النقائص فى طبيعته الحية .

فيصدق فى وصف كاتبنا انه أعظم كتاب القصــة الطويلة فى آداب العالم المعروفة غير منازع .. كما يصدق فى وصفه انه قمة شامخة بين أسمق القمم الشوامخ التى تنازعت التبريز والتفوق فى وطنه وفى زمنه .

وناهيك ببلد اجتمــع له من ابنائه فى جيــل واحــد أمثال دستويفسكى وتولستوى وتورجنيف وتشــيخوف وجوجول

مقدمة

وجوركي واوبلوموف ... وهي نخبة كريمة ، يكفي واحد منهـا لاعتزاز امة بأسرها في أمد طويل، فكيف وقد اجتمعت لامة واحدة، وفي جيل واحد ؟ ..

انه اذن ثوران البركان ، أو تحول محـور الأرض عن مكانه المكين في آفاق الفضاء ، أو ما هو لاحق بذلك من ظواهر الطبيعة التي ترجع اسبابها الى مجهولات عميقـة محجبـة بالغوامض والاسرار ، وتؤذن عواقبها بتغير حاسم في معالم الحياة ...

فظهور هذه الشموس في سماء الروسيا كان خارقـة من تلك الخوارق ، ولا مراء ، فكأنهم جني الخرافة الذي أطلقه الصياد من القمقم ، فلم تفلح في رده اليـه الرقى والتعاويذ .

اما القمقم فكان « الجهل » وأما القفل الذي كان يختم عليه اجيالا بعد أجيال فهو « الرجعية» . وأما الجني فهو « حـرية الفكر والضمير » . وأما الصياد الذي فتح القمقم في غير تدبر لما في داخله ، فهو مؤسس الروسيا الحديثة ، «القيصر بطرس الاكبر»

فقد افتتن هذا القيصر بحضارة الغرب ، فذهب يدفع بلاده الى تقليده دفعا عنيفا . وكانت الروسيا الى عهده أمة مستعصمة ببـداوتها . فبعث « بطرس »البعوث الى المـانيا وفرنسـا وانجلترا ، وحث النـاس على اتخاذ السمت الاوروبي في المأكل والملبس وآداب الاجتماع .. واخذ الناس بالرطانة الفرنسـية والاطلاع على آدابها الحسان . فكأن ذلك القيصر القديم هـو الاصل الذي اخذ عنه «مصطفى كمال اتاتورك » في هذا الزمان لولا ان الطفرة التي أراد بطرس قومه عليها كانت اكبر واعنف من تلك التي راض عليها اتاتورك ابناء بلده المحدثين ..

والناس ــ مذ كانوا ــ اعداء ما جهلوا ... فـكل طفرة من شأنها أن تجـد فيهم مقاومة حاضرة ، ولو كانت الى الخـير

والرخاء .. فما ان مات بطرس حتى سعت عناصر الرجعية الى الاستيلاء على زمام الامور . .

ولكن هيهات .. ! فان النهر لا يتجه القهقرى من المصب الى المنبع أبدا ، يصدق ذلك فى طبائع الاجتماع وعلم تقويم البلدان على السواء . فلم تفلح تدابير الحاكمين من بعد بطرس فى رد النور عن الكهوف الرطبة المظلمة التى كانت تعيش فيها العقلية الروسية منذ قرون . فانتصر النور الجديد ، وبقى الجنى مطلق السراح ، والاقزام من حوله يقرأون التعاويذ لرده الى القمقم المكسور ..

فماظنك بعملاق كان حبيسا فى قمقم مظلم ، فاذا به يرى الدنيا لاول مرة ، ويرى حواسه تلتهم الاحساسات الجديدة طوفانا بعد طوفان .. ! ؟

انها النشوة الكبرى .. ! انه « جنون الحياة » و « حمى الاحساس » تسرى فى جوارح العملاق الطليق ، وفى أعصابه ، وقلبه ، وتلافيف دماغه الذى تملكه الدوار لكثرة ما يرد عليه من الصور والاحاسيس . . فكانت تلك النخبة الممتازة من « التعبير الفنى » الفريد ..

كان بوشكين ، وكان جوجول ، وكان تورجنيف ، وكان تشيخوف ، وكان تولستوى ، وكان دستويفسكى ..

انه ثوران البركان ، أو هو تحول محور الارض عن مكانه المرسوم فى آفاق الفضاء ، او مولد « مجرة » جديدة تهتز لمولدها نواميس التجاذب بين أجرام السماء ..

فالعبقرية هى غاية طاقة الخلق التى لا تتفتق الا فى الحين بعد الحين ، ينبوعا خالدا خارقا للمعرفة الثاقبة الاحساس

النافذة الى صميم الوجود ، حيث تلهو الملايين من البشر بالقشور الاصداف على شاطئه الضحضاح ..

**

ذلكم هو قبيل دستويفسكى من نبلاء النوع الانسانى واعلامه المبرزين .. فمن هو دستويفسكى ، ذلك النبيل بين النبلاء والعلم الشامخ بين شوامخ الأعلام .. ؟

انه أصغر أبناء طبيب من اطباء الريف فظ الطبع ، خدن دن وتبع نساء . سام زوجته سوء العذاب حتى ماتت وابنها « فدور » فى سن السادسة عشرة يطلب العلم فى بطرسبرج توطئة لتخرجه ضابطا فى جيش القيصر ..

بيد ان الخدمة فى جيش القيصر لم تكن هم ذلك الفتى المتوسط الطول ، العريض الصدر ، الاشقر الشعر ، الشاحب المحيا ، اللامع العينين ، وانما جل همه فى قراءة عيون الادب الغربى ، ولا سيما مؤلفات شكسبير ، و « انوريه دى بلزاك » القاص الفرنسى الضحل الذى يعتبره فدور أستاذه وامامه فى فن الرواية ..

واذا كان المعهود فى ضباط الجيش القيصرى ان يحبوا الرقص والشراب وصحبة النساء .. فما كان الضابط فدور على شاكلتهم فى شىء من ذلك : فهو كتوم ، منطو على نفسه ، نزر الكلام ، تشغله القراءة وترجمة آثار بلزاك — ولا سيما « ايجينى جرانديه » عن ارتياد المراقص والمواخير . فما وافت سنة ١٨٤٤ ، وقد بلغ الثالثة والعشرين ، حتى فصل من خدمة جلالة القيصر لانه ابى النقلة الى الاقاليم ، مؤثرا البقاء فى العاصمة بين الكتب والاوراق فى سكن متواضع لايكاد يبرحه ليلا ولا نهارا ..

وقد اختلف الناس فى نسبة العبقرية الى مس من جن يسكنون وادى عبقر . ولكن الذى لامحل للخلاف فيه ان العبقرية شىء خارق . . حرى أن يلازمه اختلاف عن النمط السوى او المألوف فى عناصر التكوين . . وبين الاختلاف والاختلال فرق ضئيل اذا كان ثمة فرق على الاطلاق ..

وقد تركت العبقرية طابعها ذاك فى تكوين « فدور دستويفسكى » فتركته فريسة سهلة لنوبات من الصرع شقى بها منذ يفاعته الى ختام حياته فى سن الستين ..

* *

فصل دستويفسكى من الجيش فى الثالثة والعشرين من عمره ، فعكف على الكتابة والاطلاع ، فلما كان فى الرابعة والعشرين أتم روايته البكر ، التى قدر لها ان ترفعه الى قمة الشهرة والمجد الادبى دفعة واحدة ، حتى أصابه من ذلك دوار شديد ..

وهذه الرواية هى التى نضعها اليوم بين يدى قراء الشرق العربى :

المساكين ..

فهى أول ما جادت به عبقرية دستويفسكى ، فنوهت به بعد خمول ، وأذاعت ذكره وأعلت قدره عند جمع النقاد وجمهرة الادباء والقراء ..

وقد بلغ من تأثيرها ان الناشر ، وهو رجل كاتب واديب متمكن من الصناعة الادبية .. فاضت دموعه على وجهه مدرارا وهو يقرأ تلك الصفحات النابضة بالاحساس العاطفى العميق .

وانه لينذر جدا – فى جميع ما حفلت به الآداب الانسانية – أن يجد المرء نظيرا لقصة « المساكين » فهى على بساطتها

مقدمة

من الصدق بحيث تلمس القلب فيتحرك لكل كلمة فيها ، ويعانى ما عاناه ابطالها « المساكين » .من عنت الدهر وقسوة النـاس وجبروت القضاء ..

انها قصة كل مسكين فى هذه الدنيا أبت عليـه الايام حق الانسان المقدس فى الحب ، وفى الرحمة ، وفى الحـد الادنى من العيش الكريم الذى يصون ماء الوجه ودماء القلب ..

انها قصة الحرمان ، بكل ما للحرمان من سطوة على مصائر بنى الانسان ..

فاذا خانك الدمع ايها القارىء ــ وسيخونك حتما ــ وانت تتلوها مستغرقا فى سـطورها المتأججة بالشعور الجياش ، فلا تخجل من دموعك ، واطلقها .. لانها ليست دموع الضـعف التى تهدر الرجولة والانسانية ، وانما هى دموع الاحسـاس الكريم ، والاسى الرحيم ، لنفوس حرمت كل جميل ، وهى اهل لكل جميل ، لانها فطرت من النور ، وصبت الى النـور ، فقضى عليها أن تتخبط فى غياهب الديجور ..

انها أحياء حرمت حق الحياة .. فما أحياها بدمعك أيهـا القارىء الكريم .. وما احياها بقلم دستويفسكى المبدع وفنه العظيم ..

مصر الجديدة

يناير سنة ١٩٥٢

صوفى عبد الله

هــو و هــى

٨ ابريل

عزيزتى المفداة بربارة الكسايفنا .:. !

ما كان أسعدنى بالامس يا أختاه .. ! لقد كادت السعادة تقطر من جوانحى ، لفرط ما فاضت فيها عذبة رقراقة .. فقد فعلتها أيتها العنيدة الشموس ، ونزلت — لاول مرة فى حياتك — على ما طالما توجهت اليك بطلبه ، راجيا ملتمسا .

لقد صحوت أمس فى نحو الثامنة مساء (فأنت تعلمين يا أختاه مبلغ تعلقى بالنوم ساعة أو ساعتين حين أعود من عملى) ، فأوقدت شمعتى وأعددت أوراقى وأقلامى . . ثم رفعت رأسى مصادفة ، فاذاقلبى يدق فى صدرى دقا عنيفا متلاحقا .. لقد فهمت اذن ماكان يجنه قلبى ويتمناه فؤادى المعنى .. فهذى انت قد أزحت جانبا من ستار نافذتك ، وثبته فى أصيص البلسم القائم فى وسطها .. كما أوحيت اليك ذات مرة فى تلميح لم يغب عن فطنتك ..

بل خيل الى اننى رأيت من وراء زجاج النافذة وجهك الفاتن ، وكأنك وأنت فى حجرتك تنظرين الى ، وتفكرين فى . وما كان أشد حسرتى — يا ملاكى — لاننى لم أك مستطيعا أن أتبين فى تلك العتمة ، وعلى ذلك المدى ، معارف محياك الحبيب الى قلبى ..

لقد كان لى أنا أيضا بصر حديد يوما ما يا أختاه . ألا بئست الشيخوخة ياصديقتى الحسناء.. فهأنذا الآن مثلا وقد بدا لى كل شىء مثنى مثنى ، فما أكتب فى العشى ساعة وجيزة حتى تهتاج أعصاب بصرى فأصحو فى الغداة محمر العينين ، وللدمع منهما مسيل لا ينقطع وهميان لا يرقأ ، حتى ليركبنى

الخزى من مرآى حين تقع على أنظار الناس ..

ولكننى رأيت ابتسـامتك السـماوية يا ملاكى .. بعـين وجدانى .. رأيتها يا أختـاه ، فأضاءت بها روحى القابعة فى الظلمـات ، وسرى فى فؤادى ذلك الشعور الذى خالجه وجاش فيه يوم قبلتك يا « ڤارينكا » .. أتراك تذكرين ذلك اليوم يا ملاكى .. ؟

أتدرين أنه خيل الى انك كنت تهزين سبابتـك الحلوة فى وجهى محذرة ، من وراء زجاج نافذتك أمس .. ؟ فهل هـذا صحيح أيتها الحميقاء ؟ لا تكتمينى شـيئا من هذه التفصيلات فى خطابك يا عزيزتى ..

والآن ، أما ترين فكرة رفع جانب من الستار كشفا موفقا من كشوف الالهام .. ؟ فاذا جلسـت فى جوف الليـل الى أوراقى ، أو رقدت يقظان فى فراشى ، وسـعنى فى كل حال أن أعرف انك تفكرين فى ، وانك مانسيت صديقك الوامق ، وانك بخير صحة وفى أحسن حال .. حتى اذا أسدلت الستار تمام الاسدال ، فهمت عنك أنك تقولين لى بصوتك الباغم :

ـ عم مساء يا صديقى .. وطاب نومك ، فقـد آن أوان النوم ..

ثم ترفعين الستار مرة اخرى ، فكأنك تقولين فى بشاشة :

ـ عم صباحا يا صديقى .. هل نعمت بنوم هنىء .. ؟ وكيف أصبحت اليوم .. ؟ فأنا بحمد الله بخير وعافية ..

أرأيت يا صديقتى كيف صار الكلام بيننا متصلا بغير حاجة الى التدوين والتحبير .. ؟ أما ترينى صاحب خيـال وأخا حذق وزكانة حين ابتدعت هذا الفن من ادب الرسائل .. ؟

* *

لقد طاب رقادي ليلة امس ، وما كنت اتوقع ان يطيب .. فان اول ليلة يقضـيها المرء في مسكن جديد خليقة ان تحفل بالارق والقلق لغياب الالفـة وتغير العادة .. ولـكني فتحت عيني هذا الصباح ناشط الجسم متفتح النفس فـكأنني باز من الصقور حن للصـيد والطراد في أجمة حافلة بالغزلان .. لقد كان صباحنا اليوم رائعا ياأختاه ، فما فتحت نافذتي حتى دخلت اشعة الشمس الساطعة ، وتدفق في اذني تغريد الطير ، وفغم معاطسي عبير الربيع الطيب النفحات العاطر الاردان .. فكأن الطبيعة قد بعثت من موات ، فهي فرحة نشوى ، وكل شيء فيهـا يشاركها في افراحها ويسهم في حفل زينتها الفينان !

حتى انا يا عـزيزتي ، قد اسهمت في افراح الربيع ، وسرت في جسدي الواهن روحه الشابة . وكان سهمي يا أختـاه في افراح الربيع انني اسـتسلمت للاحلام ، فكنت انت ملء حلمي بالحياة والشباب ، والربيع .. فتبـديت لي في احلامي طائرا جميلا صغيرا من طيور السماء .. فما يعرف ابناء الشقاء من ابناء الفناء خلقا أولى بغبطتهم بين خلق الرحمن ، من الطـير المغردة بين الافنـان ، تحلق وتحط أين شاءت ، ولا يكلفهـا المعاش معاشرة بني الانسان ..

ولكن الاحلام على حلاوتهـا تنيء اليم يا ڤارينكا .. فانهـا تنتهي الى حسرات ، متى افاق المرء على الواقع الدميم ..

دميم .. أجل .. ولا مهرب منه .. فدعينا من الاحلام يا ڤارينكا وخبريني كيف حالك ، وكيف حال « فيـدورا » معك .. أحسب عشرتها تطيب لك ، فهي هادئة طيبة القلب ، وتحت مظهرها الجافي باطن لين المهاد من الرحمة والحنان ..

لقد حدثتك من قبل عن « تيريز » التي تقوم على خدمتنا

هنا ، وهى كصاحبتك « فيدورا » ممن فطـرن على الطيبـة والمرحمـة . . وقد رفعت عن صدرى هم وسائلنـا وكيـف نتبادلها خلسة من أعين الناس وسوء مظنتهم .. فستتولى تيريز هذا الامر عن طيب خاطر ، فهى رضـية الخلق ، على نقيض صـاحبة البيت التى ترهقهـا بالعمل الشـاق وتسىء معاملتها اساءة ليس عليهـا من مزيد ..

* *

ولاحدثك الآن عن مسكنى الجديد . وانه لعمرى لمسـكن غريب ، غريب فى نظـرى على الاقل .. فقد تعـودت فيمـا سلف من مساكنى هدوء البال والصمت ، فلا تسمع فى البيت نأمة ، واذا طنت ذبابة فى هوائه كان طنينهـا حدثا يسـترعى الآذان .. اما هذا البيت ، فهو جهنم التى لا يـكف لزبانيتهـا ووقودها صخب وضجيج . .

فتخيلى يا عزيزتى دهليزا طويلا ، شديد العتمة ، شديد القذارة ، جـداره الايمن ليس به شىء ، واما جـداره الايسر فسطر من الابواب المتشابهة المتعاقبـة على مدى متسـاوق كأبواب حجرات الفنادق .. وهذه هى ابواب الغرف المؤجرة للسـاكنين ، ومنها ما يـكتريه مستأجران او ثلاثة مستأجرين

واما النظام فأمر لا يجرى له ذكر فى خاطر احـد من أهل هذا المكان .. فكأنه فلك نوح !

بيد أن النصفة تقتضينى أن أشهد للسكان بالظرف . . فمعظمهم من أهل الثقـافة والعلم .. وان كان فيهم نفر من الضباط ، واولاء لا هم لهم الا المقامرة ان ليلا وان نهـارا ، لا يجدون عنها منصرفا ..

اما صاحبة البيت فأعوذ برب الفلق من شر ما خلق .. !

انها عجوز قصيرة القامة خبيثة .. بينها وبين النظافة ترة ! ولا هم لها سحابة اليوم الا التنقل فى البيت فى زى حائل اللون وخف بال ، لتتعقب الخادم تيريز بقوارص الكلم .. !

واما انا، فمقامى فى المطبخ !ليس فيه تماما ، بل فى حجرة صغيرة ملحقة به (ولا تنسى أن مطبخنا فى هذا البيت حسن النظافة طيب الرائحة مريح يتخلله النور والهواء) . واذا أردت التدقيق ، فاعلمى أن المطبخ متسع جدا ، له ثلاث نوافذ ، فأقيم فى وسطه حاجز أو ساتر جعل منه حجرتين ، فخرجت لى تلك الحجرة التى نعمت بسكناها ، وفيها تلك النافذة التى أرى نافذتك منها .

ولا تنسى أن هذا الموضع يتيح لى العزلة ، فلا تصل الى ضجة سائر السكان ، ولا يكاد أحد منهم يحس لى وجودا .

وقد جعلت فيها مائدة صغيرة للاكل والكتابة، وفراشا ، ومقعدين وصوانا صغيرا ، وعلقت على الجدار ايقونة ، فما ينقصنى فيها شىء على الاطلاق .

ولست أجحد أن من المساكن ما يفضل هذا السكن فضلا بينا، ولكن أوجه الراحة التى تلزمنى شخصيا بصفة خاصة تتوافر فى هذا « الركن » الهادىء توافرا لا مزيد عليه ، وأنا امرؤ يتوخى الراحة ولا يكترث للابهة والبذخ

وهل من راحة أروح لى من تقابل نافذتينا ، لا يفصلهما الا فناء دارك ؟ وانه لعمرى لفناء ضيق الرحاب ، أراك فيه غادية او رائحة فكأننى لو مددت ذراعى حرى أن ألمس جدائل شعرك .. فيتبدد شقائى وتحبب الى الحياة ...

وثم مزية أخرى لا تنكر ، فهذا السكن رخيص ، يفيض لى من كرائه ما أشرب به الشاى ، وماكنت أذوقه الا لماما . ولاسيما

ان أهل هـذا البيت قوم ذوويسار ، فاحتساء الشاى عندهم فريضة ، فلا يخلق بى أن اشذعنهم . وأما ما بقى من راتبى الصغير فمن لطف الله أن يسدخلاتى المتواضعة ، كخصف نعل يبلى ، أو تبديل ثوب يخلق أومعطف يرث .

وما أشكو زمانى ، فحاشاى أن أشكو وقـد زاد مرتبى فى السنوات الاخيرة حتى بات يحسدنى عليه الكثيرون من نظرائى . ولا يخلو عام من مكافأة عارضة أو هبة على وجه الاستثناء .

وقد اشتريت لك اليوم اصيصين من البلسم وأصيصا من زهرة الراعى (الجيرانيوم) وجدتها زهيدة الثمن . ووجدت عنده كذلك اصصا من الفاغية حسانا، فاذا رغبت فى شىء منها فاذكرى ذلك فى جوابك ، فليس الدكان بعيدا ، واثمانه ليس فيها شطط

واياك أن ترجعى سكناى فى هذا المكان المتواضع الى غير سببها الحق . فما بى والله ضـائقة ولا خصاصة، فانى ادخر لبارحات الايام شيئا من المال يفيض عن حاجتى . وانمـا هو التمـاس الراحة ، والسعى الى قربك .

لقد أطلت عليك ... ووقت عملى قد أزف ، فاستودعك الله، واطبع على أناملك الرخصة قبلة اعزاز من

وليك الوامق

((مقار ديوفشكين))

ملحظ : استحلفك أن تردى على فورا . وأرجو أن يعجبك رطل الحلوى الذى ابعث به اليك مع هذا الخطاب . والى اللقـاء أيتها الاخت .

٨ ابريل

عزيزى السيد مقار

أتعلم أن الامر قد ينتهى بيننا الى الخصام ؟ فانى وايم الله لأجد

فى نفسي الما لما تقــدمه الى من الهدايا والالطاف ، فليس غائبا عني ما تتجشمه فى هذا السبيل من التضحية ، وما تحرم نفسك من الضرورات من أجلى . وكم من مرة كررت على أسماعك انني لست بحاجة الى شيء على الاطلاق ، وأن ظروفى لا تسمح لى أن ابادلك الطافك الحسان بالطاف من مثلها أو تقاربهـا . ثم ماذا عسيت أن افعل بكل تلك الاصص المزهـرة ؟ واذا تغاضـيت عن البلسم ، فماذا ترای أفعل بزهرة الراعي ؟ أهذا عقابى لأنى اعجبت باحداها امامك عرضا ، وبغـير اكتراث ؟.. وما أظن الا انهـا كلفتك كثيرا .. فهى جميـلة حقا .. لقد وضـعتها على كل حال فى منتصف النافذة ، فى مكان الشرف ، وجعـلت أمـام النافذة رفا ثانيا يتسع لمزيد من اصص الازهار التى سأشتريهـا يوما ما ... حين يواتيني مثيل ما تنعم به انت من الثراء ! وقد سر « فيدورا » ما اضفته هذه الازهار من الرواء على حجرتنا، حتى باتت وكأنها جنة النعيم .

ولكن لماذا بعثت كل تلك الحلوى ؟ الحق انني تشممت شيئا غريبا من ثنايا سطورك الاولى ، فقد أكثرت الحديث عن الربيع والزهر والشباب وشذى العطر وغناء العصافير ، حتى توقعت أن تقع عيني فى السطور التالية على قصيدة عصماء ! افهل غدوت الآن من زمرة الشعراء ؟ لست أراك ينقصك من عدتهم شيء : فلديك الاحلام الوردية، والعواطف الرقيقة المتدفقة ، ولا أحسب الوزن والقافية يعييانك !

أما الستار ياصاحبى ، فمـا فكرت أمس فى ازاحة جانب منه كما وهمت .. وانما هو قد أزيح عفوا ، ويغلب على ظنى ان ذلك قد حدث وأنا أرتب الاصص فوق رف النافذة .. لهذا لزم التنويه!

وأما ماحاولت من اقناعي بيسر حالك ، فأمر لايقنع أحدا ، ولا

سيما فتاة مثلى تعرف مداخلك ومخارجك ، وترى مبلغ ماتتحامل به على نفسك فى سبيلها ٠٠ حتى اضطررت الى ذلك السكن الذى يقل عن مستواك كثيرا ، فقد خبرتنى « فيدورا » ان مسكنك السابق كان خيرا من هذا السكن بكثير ٠

ولكن خبرنى : هل أنفقت جميع عمرك متنقلا بين البيوت المفروشة ، تعيش وحيدا فريدا بين غرباء ، لا أنيس لك ولا صديق ، وليس من صدر حنون تطمئن اليه وتسمع منه لفظا رقيقا يجلو عن قلبك الصدأ ؟ ٠٠

تالله كم أرثى لك ياصديقى! ثم لماذا تشتغل فى الليل على ضوء الشموع ، مادام بصرك يتأذى من نورها ؟ وما أحسب رؤساءك الا مقدرين لك سابقة فضلك وحسن بلائك فى عملك ٠٠

***

لقد صحوت اليوم منتعشة النفس كما صحوت أنت ، فاشتريت حريرا وانصرفت الى العمل فى جذل ٠٠ ولكن الضيق عاد الى ركوب كاهلى ٠ فماذا يخبىء لى الغد من الاحداث ؟ أو ترانى سأظل على هذا الحال ، وخير منه برودة الموت وظلمة القبر ٠٠ فليس فى حاضرى مايشجع على الاستبشار بالعيش والرضى بالبقاء ٠ وليس فى ماضى حياتى ــ وما أكثر ما ترود حولى أشباح ذلك الماضى ــ الا مايسوء ويحزن ٠ ٠ فما تكفى بحار الدمع لغسل مارسب فى نفسى من المرارة والحزن على مالقيت من ظلم الناس ، بغير جريرة جنيتها ٠٠

لقد أوشك الليل أن يخيم ، فأستودعك الله وان كانت الكتابة ترفه عنا مانلقى ونعانى ٠٠ ولكن لماذا لاتأتى لزيارتى يوما ؟ افعل بربك ، وسأرفع جانب الستار الليلة ، وعمدا فى هذه المرة ، وطاب ليلك ٠

بربارة

٨ ابريل :

سيدتي بربارة العزيزة !

جاءني خطابك ، ورأيت بين سطوره مبلغ سخافة كهل في سني اذ يتحدث عن الشمس والزهر والربيع .. فشكرا لك على هذا التنبيه ..

ولكني لا أدري لماذا يتبادر الى ذهنك انني محروم من شيء ، أو انك تكلفينني ما لا أطيق . كلا .. فاني في يسر والحمد لله .

ثم كيف خطر لك أن تطلبي مني ان أزورك في حجرتك ؟ أما تقدرين ماذا سيقول المتقولون من ألسنة السوء ؟ اني أود أن أحظى بزيارتك ، علم الله ، ولكن أليس الحذر خيرا وأولى ؟

ليتني أراك غدا في صلاة العشاء بالكنيسة ، فمثل هذا اللقاء أليق وأسلم عقبى ..

لقد رأيتك وأنت تزيحين الستار ، ثم تبينت وجهك وأنت تسدلينه قبل النوم . . . فشكرا ياعزيزتي ، ألف شكر . ورعاك الله وأبقاك يا بربارة لصديقك الصادق الود

مقار ديوفشكين

٩ ابريل :

عزيزي السيد مقار

أتراني قد أسأت اليك وخدشت شعورك بخطابي ؟ ان هذا لم يخطر ببالي ياذا الفضل الذي يطوق عنقي أبد الدهر .. وانما هي خفتي التي تغلب على لساني ، فيخيل اليك انني أتهكم ، وحاشاي أن أتهكم أو أعرض لك الا بكل حمد وثناء .. ولعلني ما انزلقت الى ذلك المزاح البريء الا لما خيل الى من غلبة المزاح والمرح على خطابك . فعفوا ياعزيزي ، ولا يخامرنك شك في اجلالي واعجابي بمزاياك وسجاياك اعجابا لا مزيد بعده لمستزيد .

انى صحوت اليوم ضيقة الصدر ملولا . ثم اعترتنى رعــدة وغشــيتنى الحمى ، حتى أقلقت حالتى « فيدورا » . فتعــال لزيارتى ياصديقى ، ولا يغلبن عليك الحرج ، فليس فى زيارة بريئة مايضير ..

فاغفر لى مرة أخرى ، وتعال لاراك

بربارة

١٢ ابريل

عزيزتى السيدة بربارة :

ماذا بك يا أختاه ؟ أما تكفين يوما عن اثارة القلق فى نفسى على صحتك المرهفــة ؟ الست قدكررت عليك فى كل خطاب كتبته اليك ، الا تخرجى فى البرد ، وأن تتدثرى بالملابس الدفيئة؟ ولكنك واأسفاه لا تصغين الى ما أقول، ولا تلقين اليــه بالا . فما أنت يايمامتى الا طفلة وان تقدمت بك الايام الى ميعة الشــباب . وما أوهن صحتك وأوهى عودك ! فلاتهملى أمر نفسك يا أختاه، حتى لا تلقى بمن يحبــونك فى أتون القلق المقيم والقنوط الأليم .

لقد سألتنى عن جيرتى الجدد، وانى محدثك من أمرهم بماتناهى الى علمى أو مارســته بتجربتى القصيرة

وأول ما يسترعى انتباه الانسان فى هــذا البيت ، أن له رائحة غريبة ،ولاأقول كريهة.. ولكنها قدلاتستساغ لاول وهلة، حتى اذا مــكث المرء فى البيت دقائق معــدودات تشبعت يداه وأنفه ،وعيناه ، وثيابه ،وجميع جوارحه وملابسه بتلك الرائحة، فلايحس لها بعد هذا وجودا .

والبيت منــــذ بكرة الصباح كخلية النحل ، فمواقد الشاى (الساموفار) فى البيت قليلة ،وهى كلها ملك لصاحبته العجوز، فكل انســـان له دور معين فى الحصول على نصيبه من الشاى

الحار .. ومن تقدم قبل دوره أصابته ضربة من جريدة في يد ربة البيت ، فيصيح السكان مهللين !

وحول مواقد الشاى . وفى انتظار دورى ، تعرفت بجيرانى وعرفت أحوالهم .. أما فى الليل ، فليس الى النعاس المتصل سبيل ، لان الضباط يسهرون فى حجرة واحدة يلعبون فيها الورق ويصخبون معربدين فى الفينة بعد الفينة .. ثم هناك أصوات أخرى تنبعث من هنا وهناك ، تنم عن أمور تجرى فى جنح الظلام يخجلنى الحديث عنها لاى انسان ، فضلا عن ملاك مثلك .

ولكن مايدهشنى حقا ، هو كيف يتسنى لاسر ذات ولد أن تعيش بأطفالها وسط هذا الفسوق المفضوح .. ففى البيت أسرة من هذا الطراز فاضلة تعيش فى حجرة واحدة ، لايكاد يحس المرء لهم وجودا ، فهم منطوون على أنفسهم ، وحين ينامون فى الليل يجعلون فى الحجرة فاصلا من القماش بين منام الوالدين ومنام الاطفال الثلاثة .

والاب رجل هادىء جدا ، فصل من الوظيفة لسبع سنين خلت لسبب مجهول ، واسمه « جورشكوف » ، فهو زرى المنظر والملبس ، الى درجة تثير الالم فيمن يراه . وأحسبه مصابا بمرض علمه عند الله ، فركبتاه ترتعدان ، ويداه ورأسه وكل شىء فيه يرتعد .. واذا مشى لاذ بالجدران حتى لايلمحه أحد .

أما امرأته فيبدو انها كانت ذات حسن قبل أن تذوى نضرتها احداث الزمن .. والحديث عن فقر هذه الاسرة لاينتهى ، فهم فى ضنك شديد . ويقال ان الرجل ينتظر الفصل فى قضية يتعلق بالحكم فيها كل أمل له فى المعاش الكريم .

وأهول مايهولنى من أمر هذه الاسرة اننى قد أمر بحجرتها وفيها الاطفال ، فلا أسمع أذنى نأمة ، وتلك آية سوء ومحنة

شديدة ، فمايسكت الاطفال الاعن كرب شديد ومذلة ماحقة٠٠ ومايذكر أحد فى آلبيت انه سمع أطفال « جورشكوف » صارخين يوما أو ضاحكين أو باكين ،فكأن حجرتهم قبر صامت ٠وما ورد ذكرهم على خاطرى مرة الاركبنى منذلك هم، وجفاالنعاس أجفانى ٠

والآن سلاما ياعزيزتى « فارينكا » فقد غامت نفسى لذكر هؤلاء المساكين ٠٠ وماكنت أودأن أصف لك حالهم ، لولا انك ألححت فى معرفة جيرتى الجدد، فهاك هم ٠

واغفرى لى ياملاكى ماترين فى كتابتى من قصور فى التعبير وعجز فى الوصف والتصوير ،فما أنا الا كهل جاهل فاتته قافلة العلم صغيرا ، لانه كان أفقر من أن يتعلم ٠٠

وانى لك على الدوام الصديق الصادق الاخاء

مقار ديوفشكين

٢٥ ابريل

عزيزى السيد مقار

قابلت اليوم بنت عمتى « ساشا » ، فواحسرتا عليها ! انها تكاد تقضى بعلتها القاسية ٠ ٠وقد علمت منها أن « أنا فيودروفنا » مجتهدة فى استقصاء خبرى ، وتزعم انها على استعداد للصفح عما فعلت وتعتزم أن تزورنى قريبا ٠ ٠ وعلمت كذلك انها تتقول عليك، وتزعم أن قرابتك لى لاتخولك القيام على شأنى ، وانها هى أمس رحما بى منك ، وان من العار أن أقبل منك المعونة فيمايقوم بأودى ٠٠ وانها تنحى على باللائمة لاننى جحدت فضلها السابغ على أسرتى ! وحتى أمى لم تعفها فى ثراها من التقريع والتشهير والافتراء ٠

وأدهشنى انها تصر على خطئى، واننى قد ضيعت فرصة السعادة المتاحة التى هدتنى اليها فالتويت بها عن غايتها٠٠

بل انها تزعم أن « بيكوف » كان محقا اذ رفض الزواج منى ، فما ينبغي أن يتزوج الانسان من أول فتاة يجدها بين ذراعيه ..

رباه ! ان هـذا فظيع ! أما كفانى مالقيت من هـذا التاريخ الاسـود ، حتى أتجرع غصص الغبن وسوء التقدير ؟ عفـوك ياصديقى لهـذه الثورة ، فانى لاأملك نفسى من البكاء والنشيج .

ولا تلق بالا الى تهويلات فيدورا عن صحتى ، فانى خير ممـا تصور لك بكثير .. وانما هو برد طفيف أصابنى حين توجهت أمس الى القداس الذى يقام فى « فولكوفو » عـلى روح أمى المسكينة ...

لك الله ياأمى ! ليتك تخرجين من قـبرك ، وليتك تعـلمين وتشهدين ماألقى من بعدك ، وانه لاهون الهوان وأفدح الخسران ! .

بربارة

٢٠ مايو :

يمامتى فارينكا :

اليك يا يمامتى شيئا من العنب ، فهو فى رأى الاطباء مما تصلح به النقاهة ويدنو به البرء، وليس كمثله شىء لنقع الغـلة الصادية .. واليك أيضا شيئا من الخبز الابيض ، سـمعتك تتشهينه منذ أيام ، فعسى أن تكون شهوتك للاكل طيبة ، فذلك هو لباب العلاج من دائك ...واحمد الله أن ظـلاله القاتمة انجابت عن جسـدك الرقيق ، فانجابت بذلك عن قلبى سحب الجزع المضنى . ألف شكر لله على تلك المنة العظمى يا أختاه .

وأما ما حدثتك به فيـدوراعنى فلا تصدقيه ، فلم يخطر لى قط أن أبيع كسوة عملى الجديدة . فلماذا أبيعها ؟ لماذا بالله عليك؟ فالمال لا ينقصـنى ، وسأقبض مكافأة طيبة عما قريب . فلا تلقى بالا الى ترهات فيدورا ، ولا تهتمى الا بما يعجل شفاءك،

فانك ان شفيت سريعا أتحت لناأكمل سعادة تتـاح للبشر في الحياة الدنيا .

ثم منذا الذى زعم لك انني قد ضمر عودي واصابني الهزال؟ محض افتراء ! فأنا في خير حال،بل أحسبني سنمنت سمنا خليقا أن يخجلني من نفسي .. فليس ينقصني شيء ، وأما الطعـام والشراب فاني أصيب منهما شبع بطني ... وليس ينقـص من سعادتي الا مرضك ، فابرئي منه تتم لي نعمة الله جميعا .

واستودعك الله يا عزيزتي ،ناثرا عـلى أناملك الـدقاق ألف قبلة من

صديقك الذى يحفظ عهدك ويرعاه

مقار ديوفشكين

ملحظ : لا تلحي على في الزيارة ، فقد زرتك حين غيبتـك الحمى عن وعيك ، ولكني لم أعداليها لما رأيت الهمس قـد بدأ ينوشنا بما لا يرضى الحق .. فلو زرتك الآن فما عسى أن يظن الناس بنا ؟ فاصبري حتى تشفي ثم ندبر بعد ذلك أمر لقائنا في مكان بعيد عن بيتينا ...

اول يونيه

عزيزي العزيز :

كم وددت أن أقدم لك شيئا ينهض بمعروفك وأياديك البيضاء ولكنني لا أملك الا قلبي العارف بالجميل ، الحافظ للود ، المغمور بفضلك العميم ورحمتك وبرك ،وما تجشمت من مشقة وعنـاء وقلق أيام مرضي الطويل .

ثم عن لي ، في لحظة اشراق روحي ، أن أنقب في درج الذكريات الذى احتفظ فيـه بتذكاراتي القليلة ، حتى وجدت الكراسة التي كنت قد بدأت فيما مضى أدون فيها قصة أيامي ، يوم كان للسعادة والعناية بقصـة أيامي موضع .. واني أبعث اليك بها

الآن لتقرأ صفحاتها القلائل ... فهى أعز ما عندى ، لانها مرآة سريرتى ..

فكثيرا ما سألتنى يا صديقى عن سالف ايامى ، وعن أمى ، وعن « أنافيودروفنا » ومقامى فى بيتها زمنا ، ثم عن الكوارث التى انحدرت بى الى نهايتى الراهنة . فعسى أن تجد جواب سؤلك فى هذه الصفحات التى سودتها فى أوقات متباعدة ..

أما أنا ياصديقى ، فما وجدت فى تلاوتها اليوم الا ما يثير الكآبة ويشيع المرارة فى نفسى

ووداعا يا مقار .. فانى ارزح تحت عبء من السأم والملالة ثقيل ، وقد بات الارق يلازمنى فى هذه الايام حتى جعل نقاهتى كالصحراء الموات لا نابتة فيها تصافح العين او نأمة طير تؤنس الأذن ..

بربارة

أصداء الزمن

صفحة طويت ..

لم تكن سني قد جاوزت الرابعة عشرة حين مات أبى ، فانتهى بموته عهد طفولتى، اسعد عهود حياتى بالاطلاق ...

آه لذلك العهد الذى مضى ولن يعود ! لقد نعمت به زمنا رغدا فى بلد غير هذا البلد ، بعيد موغل فى البعد ، فى موضع من الريف قصى .. فقد كان أبى حينئذ ناظر أملاك الامير « ب . » فكنا نقيم فى قرية من القرى التى تضمها أملاك ذلك الامير .

شد ماطابت لنا تلك الاقامة التى يرفرف عليها الهدوء ، وتكتنفها الطمأنينة !.. فقد كنت فى ذلك الأوان فتاة دافقة الحيوية كثيرة الحركة ، فكنت أقضى معظم أوقاتى راتعة بين الحقول ،ضاربة بين الاحراش والآجام ، أولاعبة فى البستان المزهر الحافل بأفانين الشجر والريحان ،لايعترضنى أحد ، ولا يتعقبنى بالرعاية انسان : فأبى دائم الشغل بما تقتضيه ادارة الضياع الواسعة من جهد وحركة ...وأمى لاتدع لها شئون البيت فسحة من فراغ . فلم يعن بتعليمى احد من ذوى ، وتركت على سجيتى .

وكم من يوم تسللت من البيت « والشمس فى خدر أمها ، والطل لم يجر ذائبه » ، لأشهد يقظة الطير فى البحيرة المجاورة ، وخروجه من وكناته ناشطا لتحية الحياة بخفق اجنحته وانغام صداحه المتجاوب بين الارض والماء والسماء ...

وكم من نهار قضيت سحابته فى الغابة بين الشجر الالفاف ، والدوح السامق ، والظلال التى لايسبر غورها البصر .. او فى الحقول التى انتشرت فيها مناجل الحصاد ، أرقب الحاصدين والحاصدات والعرق يتصبب كالجمان على وجوههم ، والقمح كأنه الذهب الوهاج بين ايديهم وفى احضانهم .. غير مكترثة لوهج الشمس ، او للوحدة فى البرارى والاحراش .. حتى اذا

عدت الى الدار أنبنى والدى أوقرعتنى أمى ، فما كنت آبه لذلك فتيلا ..

وأحسبنى كنت قمينة الاسأم تلك الحياة بين أحضان الطبيعة ، لو انها دامت الى ماشاء الله ... بيد ان الايام لم تسنح بما أهوى وكتب علينا ان نغادر ذلك المقام الهنىء الى « بطرسبورج » ، وأنا بعد طفلة في الثانية عشرة ... وما ذكرت يوم رحيلنا مـرة الا استهلت بالدمع عيناى .. فقد بكيت بكاء مرا وانا اودع كل ترب من أترابى ، وكل صديق مــن أصدقائى .. وكل انسان ، وكل حيوان ، وكل نابتة فى الحقل كانت صديقا لى نعم الصديق فى ذلك العهد السعيد ..

وانى لأذكر اننى تعلقت بعنق ابى فى ذلك اليوم وتوسلت اليه باكية ان يتركنى فى القرية زمنا قصيرا ، اتزود من تلك الربوع بما يسلينى اذا ذكرتهـــا وقد نزحت الدار وشط المــزار ، فاستشاط ابى غضــبا ... اما أمى فانفجرت باكيــة وقد هاج دمعى عند الوداع كامن حزنهــا وشجـــاها ... ثم همست فى اذنى ان الاحوال قد تبدلت غـير الاحوال ، فقد مات الامير « ب » الشيخ صــاحب الضـــياع ، فاستغنى ورثته عن خدمات ابى فلم يبق منــاص من النقلة الى بطرسبورج ، حيث كان ابى قد استودع نفرا من معارفه ما ادخره من مال يسير ، لعله يجدد فى ذلك البلد رزقا ويجعل الله له فيه بعد عسر يسرا ..

.. كذلك حثت خطانا الايام من منزل السعد فى أقصى الريف الى ان انزلتنا ذلك المنزل النكد فى ضــفة بطرسبورج اليمنى ، حيث عشنا عامين مات فى ختامهما أبى وانا لا اعدو الرابعة عشرة من عمرى .

وشد ما كلفنى تغير الامور من حولى ، فلا اجد شيئا مما ألفت ،

ولا علم لى بما يتكشف عنه قناع الغد . فكأننى فى متاهة من حيرة العقل والضمير ..

وكيف لا ، وقد غادرت القرية وشمس الربيع تبعث الحياة فى كل شىء ، حتى فى أطلال الاكواخ وأحجار الطريق ! فاذا بى أصل الى بطرسبورج فالفيها متشحة ببرودة الخريف المكفهر ، فلا شمس ولا حياة ، ولا الافق يترامى ما امتد البصر ، فلا يرتد وهو حسير .. ولا الطير غاد رائح على حقول القمح اسرابا أسرابا ، وأصواته تشيع فى الهواء الفرح وتبعث النفوس المنطوية على التفتح للحياة نافضة عنها الاحزان .

كلا ! ذلك كان فى الريف ، أما فى بطرسبورج فالمطر والضباب ، والبيوت القائمة فى كل مكان كأنها سجون الابصار والارواح ! وأين من اسراب الطير الصادح وحداء الفلاح الكادح تلك الجموع من اهل الحاضرة الكبرى يتزاحمون ويتدافعون ، ولا آصرة بينهم ولا ألفة ، فكلهم غريب ، وما من غريب فيهم للغريب نسيب ! فكلهم مشغول بشأنه ، مزور عن غيره ، لايرد التحية الا متأففا ، فالملل ، والتمرد والتبرم بالحياة طابع المدنية الغالب على أهلها فكأنهم اشباح حكم عليها بالعذاب فى واد من وديان المطهر ، يريدون لو فروا ولا يستطيعون ..

***

صنع الله لى ! فما كان اضيق صدرى حين فتحت عينى على أول صباح لى فى بيتنا الجديد ، بعد ليلة تحالف الكرى وجهد السفر فيها على أجفانى .. لقد نظرت من نافذة دارنا الجديدة ، فاذا خربة مسورة وشارع قذر لاينقطع عنه مورد الوحول والاوساخ ، لايمر به الناس الا نثارا متفرقين ، وعليهم أدثرة ثقال .. فيعدى مرآهم الناظر برعدة البرد الزمهرير ...

وكأنما كان ذلك المنظر الخارجى آية على نمط حياتنا القابلة : فلم يمض علينا يوم فى ذلك البيت بدون مكدر ، ولا سيما من جهة

المال . فقد اضطربت أحوال ابي ووقعت بينه وبين « أنافيودروفنا» جفوة بسبب دين لها عليه مطلها اياه مكرها لسوء حاله. وما اكثر ماكان يزورنا قوم مستأدين حقهم فيكثر الصياح والنقاش ، حتى اذا خرجوا نفث فينا ابي غيظه المكتوم ، وصب علينا جام غضبه او انشـأ يذرع البيت ساعات طويلة لائذا بالصمت متجهـم الاسارير ، فلا تجرؤ أمي عـلى خطابه .. واما أنا فأنتحي ركنا قصيا لاقرأ في كتاب ، محاذرة ان يند عني صـوت ينبه الى وجودي ...

وما انقضت على نقلتنـا الى بطرسبورج ثلاثة اشـهر حتى ادخلوني مدرسة داخلية . فشق العيش فيها على نفسي بادىء ذي بدء ، لما في تلك المعاهد من وحشة وصرامة . فضقت ذرعا بالمربيات والمعلمين، وسئمت الحياة في شهوري الاولى هناك، فكم من ليلة قضيتها ساهرة يأبى النوم فيها ان يزور مقلتي المقرحة الاجفان . وكم من أمسية جلس الطالبات للاستذكار تحت رقابة مشرفة عبـوس ، قضيتها جالسة مثلهن امام الكتب والاوراق ، فلا أرى منها شيئا ، لان خاطري قد انطلق بعيدا ،الى حيث ابي وامي ومرضعتي العجوز التي طالما اسمعتني احاديثهـا وأقاصيصها العذاب فاستهـوت خيالي المشبوب .. حتى اذا عدت من رحلتي الحالمة ران الاسى على نفسي حتى لتشتهي الموت ... فأين من ذلك الصمت ، ومن هذا النظام الصارم ورعاية السمت ،دفء البيت ، وحرية الحركة فيه وقبلة الام الحنـون التي تشرح الصدر الحزين ..

فاذا أصبح الصـباح كنت اجهـل التلميـذات بدروسي ، فيعاقبني الاسـتاذ الهضيم الوجه بالركوع في مقدمة الفصل ، ويحرمني من وجبة الغداء ! فأضحي أضحوكة التلميـذات ، ومثار هزئهن . وتمادى فريق منهن فصـار يعـابثني ، ثم

يشكونى الى المشرفة ظالما .. فأظل طول ايام الاسبوع فى كرب شـديد الى ان تأتى مرضعتى مساء السبت لتصـحبنى الى البيت ، جـنتى المـوعودة . فأدخله مشرقة الاسارير ، وقد أنسيت بدخـوله ما أشقانى فى البعد عنه . فاذا جلسنا للعشاء جعل أبى يسألنى عن مدى ماحصلت من العلوم ، ومن اللغة الفرنسية على الخصوص ، فقد كان الرجل يقتطع من لحمـه ودمه لينفق على تعليمى ، فحق له ان يستأدينى الجد والاجتهاد

ومضت الاسـابيع تبـاعا ، وشبح الضنك تتعالى دقاته على بابنا أسبوعا بعد أسبوع ، فأرى صدى تلك الدقات على وجـه أمى وسـحنة ابى ، واسـمعه قوارع لاذعـة يصـبها أبى على رأسى وعـلى رأس أمى المسكينة لسبب تافه أو لغـير سـبب على الاطلاق

وانحدر الرجل الى هاوية الشـيخوخة البـاكرة انحدارا سريعا ، بما أكل الهم من قلبه وما عـب من دمـه .. فلمـا أصابه البرد ذات يوم اودى به كما تودى الريح بالسراج ، فلم يمهله الا أياما معـدودات . فقضت أمى أياما بعد موته لاتفقه ما حل بنا ، فقد استعصى على فهمها أن تصدق انه مات بتلك السرعة ، وتركها فى خضم الحياة وتركنى بلا سند ولا معين .

وما غوضر أبى قبل أوانه حتى انشقت الارض عن دائنين عدد الحصى والرمال ! فاضطررنا الى الخروج لهم عن كل شىء ، وصرنا بلا مأوى ، وبلا مورد يمسـك علينا أودنا وماء وجوهنا ..

وكانت أمى تشكو ضعفا عاما وانحطاطا شـديدا فى قـواها لا شفاء منه الا بتغذية جيـدة بتنا ولا طاقة لنا بها .. فكأننا على شفير هار .

وفى تلك المرحـلة القاسية من حياتنـا اقبـلت علينـا

«أنا فيودروفنا» ، وفتحت لنـــاصدرها ، زاعمة أن لها مالا يغل عليها ما يفيض عن حاجتهـــا ،وانها من ذوات قربى أبى ، فهى مسئولة أن تجنبنا ذل المسغبة. واظهرت من الرقة لنا ما عطف قلبينا نحوها ، وكيف لا ، ومثلناومثلهـــا كمثـــل الارض الموات والسحاب الممطر الغدق .

فلما دعتنا الى الاقامة فىبيتهالبينا الـدعوة ، لانه لم يكن عن تلبيتها محيص .. وانتقلنـــاالى منزلها فى حى « فاسيلييف» ذات صباح مقـــرور الانفاس ،مشعشع بأشعة الشمس وكأنما اصابت حرارة الشمس فى ذلكاليوم فترة ..

فكان وقع خطانا ، وبكاء أمىوهى تنقل خطاها الى جـــوارى على اتساق مع الطبيعة المكتئبة،فأحسست كأن يدا باردة تعصر قلبى بين جنبىحتىلتكاد تستل روحى ..

لقد كنا على أبواب من داخلهاالعذاب الاليم .. ولكن لم يكن لنا بد من الدخول ، فدخلنا ..

فى الليلة الظلماء

وما كان لنا حين نزلنا فى دار « أنا فيودروفنا » الا أن نحس الوحشة لتبدل الالف وتحول الحال ..

وكان بيتها عبارة عن خمس حجرات ، تعيش فى ثلاث منها « أنا فيودروفنا » وابنة عمتى ساشا ، وساشا فتاة يتيمة لطيمة ، مات عنها أبواها فتكفلت بها «أنا» . فأقمنا نحن فى الحجرة الرابعة . أما الحجرة الاخيرة ـ وهى التى تجاور حجرتنا ـ فيكتريها من « انا » طالب علم شاب رقيق الحال اسمه « بوكروفسكى » ..

والحق أن «آنا» كانت تعيش فى بحبوحة لم نكن من قبل نحسبها تنعم بها ، وان كان مورد معاشها ما يزال حتى ذلك الوقت سرا من الاسرار . فهى لاتنى عن الحركة والخروج بضع مرات كل يوم ، وتستقل العربة كلما خرجت . واذا لم تخرج ظل الضيوف يتدفقون على بابها فى زيارات خاطفة قد لايزيد بعضها على دقائق معدودات تقضيها فى التهامس مع زائرها بنجوة عن الآذان .. وكانت أمى تحرص على الذهاب بى الى حجرتنا الخاصة كلما رن جرس الباب. فيبدو من ذلك امتعاض على وجه « آنا » ، لانها كانت تحب أن يرانا الناس فى ركابها لتزهو باحسانها الينا .. وحفزها هذا الترفع منا الى مخاشنتنا ... فهى تزهو علينا وتمتن ، واذا جلسنا للطعام جعلت تحصى علينا بنظراتها القاسية اللقيمات التى تطاوعنا افواهنا على التقامها فاذا ثارت كبرياؤنا يوما ولم تواتنا الشهوة للطعام ، ثار ثائرها وعزت ذلك الى ترفعنا عن الطعام لتواضعه ، وما به من تواضع .. وانما هو شعورنا بالضعة والهوان .

وكم من مرة نبشت قبر أبى بلسانها السليط ، مطمئنة الى

اننا لا نملك لعدوانها دفعا . فالدمع متنفسنا الوحيد من ذلك الضيق الجاثم على صدرينا .

ولم نجد لنا مخرجا من ذلك الضنك الا العمل ، فأخذنا نتنقل بين البيوت للحياكة فيها ، مع ما فى ذلك من ارهاق لامى التى يزداد هزالها يوما بعد يوم ... لعلنا ندخر شيئا يكفل لنا الاستقلال بمعيشتنا بعيدا عن «آنا» وبيتها المنكود .. فأتى هذا العمل المضنى على البقية الباقية من عافية والدتى ، وباتت تهوى الى قضائها بين سمعى وبصرى ، فلا أستطيع لها شيئا .. وماذا تستطيع عاجزة فقيرة امام سطوة الجوع والمرض ؟

ومضت الايام أشباها فى قتامها وملالتها وثقل خطاها . ومن أين يأتينا الشعور بالتغير ؟ لقد كنا نعيش بمعزل عن الدنيا قاطبة ، فكأننا لسنا من أهل المدينة التى تموج بالناس وتضطرب بالاحداث . بل اننا صرنا أقرب الى اعتزال « آنا فيودور فنا » لانها طامنت من غلوائها لما رأتنا خاضعتين لها لا نفكر فى دفع الاذى عنا أو مناقشتها فيما ترمينا به أو تنوش به ذكرى أبى . وكان يفصل حجرتنا عن حجراتها الثلاث دهليز صغير ، فكأننا فى جناح مستقل لا يشاركنا فيه الا الطالب الفقير « بوكروفسكى » .

وكان « بوكروفسكى » يلقن ابنة عمتى « ساشا » دروسا فى اللغة الفرنسية واللغة الالمانية والتاريخ والجغرافية وسائر العلوم فى مقابل المسكن والمأكل ، لانه لا يملك موردا للعيش الا تلك المهنة الشاقة .

واقول انها مهنة شاقة ، لان « ساشا » التى لا تعدو

الثالثة عشرة من عمرها شيطانة خبيثة لا تفرغ لها فنــون من العبث والمناورة ..

وقد ألمعت « آنا فيودروفنا »،لأمى اننى أحسن صنعا لو أفدت من هذه الدروس المجانية ، مادام موت أبى قد حال دون اتمــــام دراستى ، فرحبت والدتى بهذه الفــكرة ، وكــذلك بدأت حقبة دراسية تعلمت فيها عـــلى يد« بوكروفسكى » وزاملت فيها ساشا مدى عام كامل ..

وقد كشفت لى هذه الدروس عن حقيقة معلمى ، فاذا هو مثلنا فقير معدم .. واذا المرض والفقر قد اجتمعا على بنيته الضعيفة، فلا يتاح له المواظبة على حضور دروسه فى الجامعة ..حتى بات نعته بالطالب أثرا من آثار العادة لاتقريرا من تقريرات الواقع .

ولم أر فى حياتى شخصا فى مثل هدوئه وحيــائه الشديد . ولعل مرد هذا الى خزيه من فاقته وزراية مظهره .. فــكان هـــذا الارتباك الذى لايفارقه فى كلام أو مشية أو تحية يثير ضحــكى كلما رأيته ، فلا أستطيع مغالبة الضحك وان اجتهدت فى كتمانه طاقتى .. ولاسيما ان «ساشا» الخبيثة لاتكف عن تدبير المعابثات والنكايات أثناء الدرس .

وزاد من استثارته للضحك والمعابثة انه كان سريع الغضب ، يصرخ لأتفه اثارة ، وكثيرا ماكان يقطع الدرس وينصرف الى حجرته غاضبا ونحن نضحك منــه ملء شدقينا .

وأكثر وقته كان يقضيه فى حجــرته منصرفا الى القراءة فى كتبه الكثيرة .فكل ماكان يحصله من اعطاء الدروس الخاصــة فى بيوت الطــلاب كان يشترى به مايقع فى نفسه من الكتب بالغا ما بلغ ثمنه ..

فلما انقضت فترة من الوقت تكشف لى هذا المظهر الخادع عن حقيقة لاتشبهه الا مشابهة النقيض للنقيض : فاذا نفس نبيلة وقلب

سرى ، واذا فتى هوأخلق الناس بالتقدير وأولاهم بالفضل والكرامة فيمن عرفت طول حياتى ، فأضحى أصدق أصدقائى بعد أمى ٠

وقد تفتحت عينى على هـذه الحقيقة بعد عماية حمقاء تخبطت فيها مسوقة اليها بقدوة «ساشا» الرعناء : ففيما نحن نسخر منه ذات يوم وقد أخذتنـا نشوة المعابثة والخفة والتلذذ بمـرأى هذا الفتى مغيظا ثائر الاعصاب، ترقرق الدمع فى عينيه من فرط ماأشعره من القهـر ، وقال فى صوت يختلج فيه البكاء الحبيس، وكأنه يحدث نفسه :

ــ رباه ! ماأضرى الشـر فى نفسيكما أيتها الصغيرتان !

فكأنما نفذت كلماته الى شغاف قلبى ، فشعرت فى تلك اللحظة بفداحة جرمى، وخجلت من نفسى خجلا شديدا ٠وقلت له فى توسل صادق والدمع يكاد يخنقى :

ــ هدىء روعك ، ولاتغضب فما قصدنا ايذاء شعورك ٠ فلا تؤاخذنا بسفاهتنا وألق علينـا بقية الدرس

ولكنه أبى ، وأقفل الكتاب ثم انصرف الى حجرته غاضبا ،فبقيت سائر ذلك اليوم نهبـا للنـدم والاسى ، لاننا أذللنا كبرياءه حتى دفعناه الى البكاء دفعا .

ولم أذق فى ليلتى تلك طعم النوم الى أن طلع الصباح ٠ فما أذكر ليلة أشأم من تلك الليلة فيما مر بى ٠ ٠

وانى لاعجب ممن يزعم ان الندم يغسل الحوبة ويسرى عن النفس ماتجده من تأثم ، ويرفع الحرج عنها ٠٠ فما وجدت شيئا من ذلك حين تنفس الصبح عن ليلتى الليلاء ٠٠ ولعل شيئا من العزة قد خالط ندمى . فقد آذنى أن يرانى طفلة مثل ساشا وأنا فى الخامسة عشرة من عمرى ٠

ومنذ ذلك اليوم صار شغلى الشاغل تبـديل تلك النظرة ، والعلو بمكانتى واعتبارى عن ذلك الدرك الذى ترديت فيه بعبثى السخيف ٠٠

صـــورة أب

وأراني مسوقة في هذا الموضع من مذكراتي الى الكلام عن أعجب من رأيت من الناس وأدعاهم الى السخرية والاشفاق في آن واحد. واذا كنت لم أجر قبل هذه الساعة له ذكرا ، فما ذلك الا لانني لم أتنبه لوجوده من قبل .. أما وقد بات يعنيني بـين عشية وضحاها كل أمر له بأستاذي « بوكروفسكى » صلة ، فذلك الشيخ الغريب الاطوار أهل لدى لكل رعاية واهتمام ..

فقد كان يلم ببيتنا بين الحين والحين شيخ قصير القامة ، زرى الملبس ، أشيب اللحية ، ضاو ، متخبط الحركات .. فهو معجز في غرابة شخصية وشذوذ هيئته . فالذى يقع في النفس لاول وهلة انـه امرؤ رازح تحت وفـر من الحزن ، فهو ضيق الصدر بنفسه التى بين جنبيه يتمنى لو واراها عن الناس ! انه يمشى متسـللا لائذا بالجـدران كي يوارى من شخصه ما استطاع . ولكن حركات وجهه واشـاراته الشاذة كانت تلفت اليه الانظـار ، وتوقع فى الأذهان انه انسـان مسلوب العقل .

وكان هذا الشيخ اذا جاء الى بيتنا لايجسر عـلى الدخول من الباب الزجاجى ، بل يبقى في الدهليز الخارجى محاذرا أن يندعنه صوت ، فاذا اتفق مرورى به أو مرور ساشا أو أحد الخدم ممن يأنس فيهم الميل اليه ، حيا بحنى رأسه دون أن يتكلم ، وأشار بيده اشارات تدل على الرغبـة في الدخول مع التوجس من وجود الغرباء . فاذا أشير اليه أن ليس ثمة غريب بالدار وانه لا مانع من دخوله ، أقدم على اجتياز « العقبة » وقد سرت فى وجهه علائم البشر والحبور ، واتجـه من فوره الى حجرة « بوكروفسكى » لايلوى على شيء .. فذلك الشيخ أبوه .. وقد عرفت بعـد ذلك دقائق تاريخ هذا الشيخ المسكين . فقد كان موظفا فى ديوان من دواوين

الدولة ، ولكن افتقاره الى الذكاء واللباقة والحزم قعد به عن الرقى ، فبقى حيث بدأ خاملا مغمورا ٠ ولما ماتت امرأته الاولى ـ والدة بوكروفسكى ـ سولت له نفسه أن يتزوج من فتاة تنتمى الى الفئة الدنيا من الطبقة الوسطى ، فكانت هذه الزوجة الجديدة فاتحة عهد جديد من الارتبـــاك الشامل والازمات الشداد تتوالى وتتزاحم على منكبى الزوج الضيق العقل المطموس البصيرة والشخصية ٠ فهى امرأة مستبدة ، شــكسة ، سليطة اللسان جموح ٠

وكان بوكروفسكى يوم بنى بها أبوه طفلا لايعدو العاشرة من عمره ، فسامته هذه المرأة القاسية سوء العذاب ، حتى أخذت الشفقة به سيدا من سراة التجــار طالما شمل بوكروفسكى الاب بعطفه فأولى الغلام اليتيم الامر عنايته ، وأدخله القسم الداخلى فى احدى المدارس على نفقته الخاصــة ٠ واسم ذلك السيد الاريحى الكريم « بيكوف » : وسر عطفه على الغلام ان بيكوف قريب « أنافيودروفنا » التى ربت أم بوكروفسكى فتاة الى أن زوجتها وكانت بائنتها خمسة آلاف روبل ، خرج عنها السيد بيكوف من حر ماله صدقة خالصة ٠٠

ولست أدرى ماصــنع الدهر بهذه الآلاف الخمسة من الروبلات ، فمبلغ علمى عن هــذا الموضوع ماصرحت لى به « آنافيودروفنا » أما « بوكروفسكى » نفسه فلم يكن يحب الخوض فى حـديث أسرته وماضيها ٠٠ واذا صدق مابلغنى عن جمـــــــال أم « بوكروفسكى » الباهر ، فمــا أعجب اقدامها على الزواج ـ فى بكرة صباها القصير ـ من رجل فيه من البلاهة والفماءة مافيه ٠٠ على فقر وكهولة ٠٠ وان لم يكن عجيبا أن تســوء صحتها بذلك الزواج ، فتموت فى ابان شبابها قبل الاوان ٠

٠٠ وواصل بوكروفسكى دراسته موفقا فيها الى أن دخــل

الجامعة ، وكان السيد «بيكوف» يحضر الى بطرسبورج بين الحين والحين فيشمله برعايته ويزوده بما يلزمه من المال ‥ حتى اذا عاقته صحته عن مواصلة الدرس في الجامعــة ، قدمه الى « أنا فيودروفنا » وأوصاها به خيرا ،فأنزلته في بيتها وكفلت له فيه المأوى والمأكل مقابل تعليم الخبيثة « ساشا »

أما والده الشيخ فزادت حاله سوءا ، وأفضى به الحزن والهم لما تصبه زوجه على رأسه من جام العذاب الى ادمان الخمر ، حتى بات لايفيق ‥ كأنما قد كان ينقصه هذا الداء الوبيل ليضيف الى نقائصه نقصا جديدا ‥

فلما أدمن الشراب زادته امرأته نـكالا ، وصارت تضربه ولا تسمح له بالنوم الا فى المطبخ !حتى أصبح الضرب عنده صنو الخمر ، يتقبله منها دون مقاومة ودون استياء !

وقد عجلت هذه الارزاء بشيخوخته ، فهو أصغر بحساب الايام والسنوات مما يبدو للناظرين، ولكنها آفاته الشداد ، أسلمته الى الهرم وبلغت به أعتاب الجنون، وأخذت تدق له بابه دقا عنيفا فهو أشبه الناس بالدواب والبهم، لولا عاطفة انسانية واحدة تسمو به عن ذلك الدرك ، هى حبــه لولده « بوكروفسكى » حبا لاحد له ‥

ويقال ان « بوكروفسكى » يشبه أمه شبها غريبا ، فلعــل ذكرى تلك الزوجة المفقودة هى التى تلهب مشاعر الرجل المفجوع بها مرتين : مرة لفقدها ، ومرة لما أصيب به حين استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير ‥

ومهما يكن من شيء ، فالــذى لاشك فيه ان الشيخ كان مولعا بولده ، فلا حديث له الا عنه ‥ ولا ينقضى اسـبوع دون ان يأتى لزيارته مرتين ٠ واحسبه لم يكن يزيد عليهمـــا لانه كان يعلم ان ولده لايرتاح الى وجوده معه ٠ وأظن ازدراء الفتى لأبيــه كان

أبرز اخطائه ونقائصه طرا ٠٠ بيد ان الانصاف يقتضينا ان نقرر الواقع : فالشيخ كثيرا مايستنفد ببدواته وسماجته صبر كل صبور ، وما اكثر مايصرف ولده عن عمله او يقطع عليه حبل قراءته بحديث لا ترابط بين حلقاته واسئلة لامعنى لها ولا طائل تحتها ٠٠٠ يضاف الى ذلك كله انه قد يأتي لزيارته مخمورا ٠

وقد حاول الشاب ان يثني والده الشيخ عن عاداته الوبيلة، وان يصرفه عن الفضول والثرثرة ٠٠ حتى افلح في حمله على التزام الصمت التزاما تاما ، فلا يفتح فمه الا حين يأذن له في الكلام ٠

وما كان هذا الاقلاع عن عادات طال عليها الامد ، واتصلت جذورها العميقة بنقصه النفساني المزمن ، ممكنا لولا سلطان الولد على أبيه ٠ فالشيخ معجب بأبنه أشد الاعجاب ، وهو عنده مثل أعلى أو قبس خارق من عالم الارباب ٠٠٠ فلا يدخل عليه الا متطامنا متضائلا كالمستغفر ٠ وبعد تردد طويل في الدخول ، فاذا لقيني في الدهليز استوقفني ليسألني عن احوال ولده سؤالا في أثر سؤال ، حتى لقد يطول بنا ذلك الحديث ، او التحقيق ، ربع الساعة او عشرين دقيقة ٠ تدور كلها حول حالة الفتى الصحية ، وما يشغله في هذا الاوان ، أهو الكتابة أو التفكير في موضوع فلسفي ؟ وهل مزاجه معتدل ؟ حتى اذا طمأنته وشجعته استخار الله في الدخول ٠٠ فيفتح باب الحجرة ويطل منه برأسه ٠ فاذا مارأى من ابنه بشاشة الانس والترحيب ولج الباب على أطراف اصابعه ، ثم خلع معطفه البالي وقبعته التي انتشرت فيها الثقوب وكاد البلى يفصل سقفها عن جوانبها ، مخافتا من حركاته كمن يخشى ان يوقظ نائما خفيف الجفن ، ثم اتخذ لنفسه مجلسا يكمن فيه مثبتا نظراته في ولده ، حتى لاتفوته شاردة ولا واردة من حركاته وقسماته وكلماته ٠ فاذا

لمح فيه ماينم على الانقباض والازورار نهض من مقعده منصرفا متعللا بأنه لم يكن يريد الزيارة، وانما قد عن له ان يمر بأبنه فى طريقه مرور استطلاع ، وكيما يستريح برهة قصيرة لان الموضع الذى يقصده بعيد الشقة ... ثم يتناول قبعته ومعطفه ويخرج كما دخل فى هدوء ، وعلى شفتيه ابتسامة يصطنعها ليخفى عن ولده ماشاع فى نفسه من الاسى

أما اذا أحسن الفتى استقبال ابيه وهش له ، فما تكاد تتسع له الدنيا من شدة الفرح .. فللسرور فى مقلتيه فيض من اللألأ لا يعهد فى نظرتهما الكابية وللبهجة فى حركاته خفة واتساق .. فاذا ماوجه اليه ابنه الكلام تحفز للنهوض من مجلسه واجابه فى نشاط تمتزج به الرقة والتواضع والاكبار الذى يكاد يدخل فى باب العبادة والتقديس فيتخير الفاظه تخيرا يشق عليه فلا يستطيع استعمالها فى مواضعها على وجهها الصحيح ، فتخرج العبارات من فمه آية فى الفكاهة والطرب ، وما قصد الى فكاهة أو طرب ... وتستبد به الحيرة حينئذ ، فلا يفتأ ينقل يديه لا يدرى أين يخبئهما ، فعل الجانى المتلبس بجريمة يثقل عليه وزرها . ثم ينتهى به الامر الى اللعثمة والهمس ، ويتصبب وجهه عرقا ، خزيا مما انتهى اليه أمره » بين يدى « معبوده ..

أما اذا اتفق له جواب لائق أو عبارة سائغة ، فما اسعده بهذا التوفيق الذى يملى له فى الاستطراد ، فلا يحار اين يخفى يديه ، وانما هو يسوى بهما رباط عنقه ، ثم يثبتهما فى جيبى صداره مزهوا بنفسه !..

وقد يتمادى فى هذه الاحوال فى الثقة بنفسه ، فيتجاسر على الوقوف والتمشى فى الحجرة ، ويمد يده الى كتاب من كتب ابنه فيقلب صفحاته متكلفا الهدوء والاطمئنان ، كأن بشاشة ولده هى القاعدة المألوفة ، وكأن انطلاقه على سجيته فى حجرة ولده عادة له جارية ..

ولكنى شهدت مبلغ ذعـــر الشيخ وقد نهاه ابنه ذات يوم عن لمس كتبه وأوراقه ، فبـــادر الى وضع الكتاب الذى كان بيده فى مكانه ، فوضـعه لاضطرابه مقلوبا ، فتناوله مرة اخرى كى يصحح وضعه ، فاذا به يضعـه فى هذه المرة وفتحته الى الخارج! فأخجله هذا الخطأ الجديد ،واحمر وجهه احمرارا شديدا ، وحار فى نفسه كيف يخفى جريمته ..

فبهذا السلطان استطـــاع « بوكروفسكى » الشاب ان يقوم من اعوجاج ابيه الشيخ ،وكان اذا رآه ثلاث مرات تباعا صـــاحى الفؤاد غير ثمل اعطاه نصف روبل او أشترى له حذاء او رباط عنق أو صدارا ..

وما كان اعظم فرح الشـــيخ بهذه العطايا ، التى يتيه بهـــا مزهوا ، وقد يدخل حجرتنا ليرينا اياها ، حاملا الينا شيئا من الحلوى او التفاح مما افاء عليه ابنـــه ثمنه ... وليتحدث الينا عـــن مزايا ابنه ماشاء له الله أن يتحدث

وكانت أمى ـ رحمها الله تحب الشيخ وتعطف عليه كثيرا فكان الشيخ يأنس اليها .. أما «أنافيودروفنا» فكان ـ لو اطاق ـ يولى منها فرارا وقد امتلأ منها رعبا ، لولا انه يخشى نقمتهـــا وغضبها ، فيظـــل بمحضرها ما أذنت له فى البقاء صامتـــا مطرقا ..

بـرج الخفـاء

لم تطاوعني نفسي على متابعة الدرس على يد بوكروفسكي، فقد تحليت امامه بالرزانة والعقل ،وحملت « ساشا » على الاقـلاع عن ألاعيبها ومعابثاتها حتى بات استاذنا الشاب ناعم البال لايعكر صفوه منا معكر ، ولكنه مافتيء ينظر الى نظره الى طفلة لـم تبلغ الحلم ، وكل ماطرأ عليهـا من تغير انها كانت طفلة عابثة لاغية ، فأضحت طفلة هادئة رزانا وهي في حاليها ماتزال طفلة . ولم تجد معه محاولاتي الكثـار في لفت نظـره الى مامتـاز به على « ساشا » من صبا وسن تسلكني في عـداد الشابات الاوانس .

ولكن هذه المحاولات لم يكن أمامها متسع غير ساعات الدرس فما كنت اجد في نفسي جـرأة على خطابه في غير تلك الساعات ، فما ألمحه في البيت رائحا أوجائيا حتى يحمر وجهي ويجف حلقي فيلتصق به لساني وتبرد اطرافي فلا أنبس ببنت شفه . فاذا فاتت فرصة السلام او الكلام اسرعت الى ركن قصي أنتبذه لأبكي فيه خيبتي وسوء حالي ..

ولست أدرى حتـام كان هذا الحال قمينـا ان يدوم ، لو لم تسنح فرصة من سوانح العناية فتكشف ماكان بيننا من حجب ، وتقرب بين قلبينا على غير انتظار

فقد كانت امي ذات ليلة في حجرة « أنا فيودروفنا » لشأن لها أو لسمر ،ولم يكن بوكروفسكي في البيت ، فدخلت الى حجـرته متلصصة على اطراف اصابعي ،وقد استولت على رغبة قاهـرة لاعقل لها ان استطلع خفـاياها بنجوة من الرقباء . فقـد كان يلقي علينا الدروس في حجـره ساشا ، ولم اكن قد دخلت حجرته الخاصة على تقادم العهد عـلى جيرتنا نيفا وسنة ..

برح الخفاء !

وما دخلت من البـــاب حتى الفيت قلبى يدق داخل ضلوعى دقا عنيفا متداركا حتى لقـــد خشيت ان ينفطر او ينشق ٠٠ ولكن ذلك الوجيب لم يصرفنى عن التطلع فى فضول شديد الى كل ماحولى ، فاذا اثاث متواضع جدا ، تزيد الفوضى الضاربة عليه من حقارته وضعته : فعلى المقاعد والمائدة اوراق مبعثرة ، وعـــلى الارض اوراق اخــــرى وكتب واضابير ٠ فقفز الى خاطـــرى شعور جد اليم غمر وجدانى فى تياره الطاغى : فقد قر فى نفسى ان هذا الفتى لايمكن ان يرى فى صداقتى وحبى مقنعا له وغنى عن كل حب وصداقة ، فهو عالم واسع العلم والثقافة ، بعيد مرمى الفكر والقريحة ، وانا فتاة جاهلة او فى حكم الجاهلة ، لايكاد ماقرأته يستحق الذكر ، فما أذكر اننى قرأت كتابا برمته من الدفة الى الدفة ٠٠

ووقفت وسط هذا الطـوفان من الـكتب أنقل بينه بصرى ، وأرمى بنظـرات الحســد رفوف المكتبة التى تكاد تنوء بما تحمله من الاســفار الثقال ٠ ٠ ورأيت نفسى وقد تقسمها الاسى ، والحسرة والغضب الجائع الذى يحفــزنى الى العمل ، اى عمل يخرج بى عن هذا الموقف الاليم ٠

وكان اول ماعن لى ان اقرأ هذه الكتب جميعا ، من اول كتاب فيها الى آخر كتاب ، لا اترك منهـــا شيئا ولا افرط فى شيء ، فى غير وناء ولا ترفق ٠٠ فلعلنى اذا انا فرغت من قراءة كل ماقرأ ، أكون كفئا لحبه وصداقته ٠٠

وهجمت على أول رف مـــن رفوف المكتبة ، فتناولت اول كتاب فيه دون تدقيق او رغبـــة فى التحرى والانتقاء ، فاذا سفــر قديم اصفرت اوراقه وعلاه الغبار فحملته مضرجة الوجنتين خافقة القلب واجفـــة وانطلقت به الى حجرتنا وانا احسب اننى قـــد

وقعت على كنوز قارون ، وفي مرجوي ان اقرأه على ضوء «الذبالة الساهرة » اذا ماسجا الليـــل ونامت عين والدتى ٠

وفتحت الكتاب فى حجرتنـــا قبل ان اضعه فى الدولاب ، فاذا شىء خاب له رجائى العظيم :فما كان ذلك الكتاب الا مجمــوعة نصوص لاتينية لا افقه منهـــا شيئا ، فأسرعت به الى حجـــرة بوكروفسكى قبل فوات الاوان٠ وما هممت بوضع الكتاب حيث كان حتى سمعت فى الردهة وقع اقدام الشاب عائدا الى حجرته ٠ وكانت الكتب الاخرى قد احتلت مكان الكتاب الذى اخرجته مــن بينها ، فأسرعت فى افساح مكان له والخوف يهزنى هزا شــديدا من أن يفاجئني بوكروفسكي متلبسة بالجريمة الدامية ، فاذا بالمسمار الذى يمسك الرف الى الجـدار يتداعى ، كأنه كان ينتظر هــزة يدى انا الشقية حتى ينوء بما كان يحمله زمانا طويلا دون كلال فوقع الرف وتنـــاثرت الكتب عـــلى الارض ٠٠ فلو ان قنبلة انفجرت بين قدمى لما كان لهـــا أهول من وقع هــــذه الاسفار وضجتها المكتومة ٠

وفى هذه اللحظة انفتح الباب وبرز منه بوكروفسكى ٠٠ وكنت اعلم مبلغ حرص الشاب عـــلى كتبه ، فالويل لكل من تحـــدثه نفسه أن يمسها بخير او بشر ٠ فناهيك اذن بما استولى عــلى من الفزع فى تلك اللحظة ، وقد تناثرت كل تلك الكتب ، فأخذت تتراقص تحت المائدة والمقـاعد ،وفيها العمـاليق والاقـــزام ، والاشياخ والاطفـــال والسمان والعجاف ٠٠٠

لقد وودت أن أولى الادبار فرارا من هذا الموقف الشديد ، ولكـن أين المفر ؟ لات حـــين فرار ! وحدثتني نفسى ان هـــذه الفعلة حرية ان تثبت فى ذهن الشـــاب ظنــــه بى ، اننى لست الا طفلة لاغية لاهية ، تعبث بكل شىء متى أمنت عين الرقيب ، فهى قاصرة العقل خاسرة مفسدة !

وقد صح ماتوقعت : فما ان مضت لحظة صمت كأنها الدهر أو ساعة من يوم الحشر ، حتى انفجر مرجل غضبه وانشأ يعنفنى ثم انحنى على الارض ليجمع ما انتثر من كنزه الثمين ، فانحنيت مثله أجمعها ، فصاح بى فى هياج شديد :

ـ اليك عنها ... فلا تتعبى نفسك فيما لاينبغى لك . وكان خيرا لك قبل هذا الا تدخلى مكانا لم تؤذنى فى دخوله ولم يدعك الى دخوله صاحبه !

فلما رأى خجلى وصمتى وتأثمى خفت حدة غضبه ، واستطرد بعد حين فى لهجة أقل حدة وعنفا :

ـ أما آن لك ان ترعوى ؟ اما آن لك ان ترشدى وتتجنبى أفاعيل الصغار ؟ ألم تحسى انك قد عدوت طور الطفولة ، فأنت الآن فى الخامسة عشرة يافتاة !؟

وكأنما أراد ان يستوثق من صوابه حين قال انى بلغت الخامسة عشرة ، فرجع بصره فى قامتى علوا وسفلا ، فاذا تلك النظرة تسكب فى وجهه وأذنيه طوفانا من دم الخجل والحياء !

ولم ادر لاول وهلة ماذا اصابه من هذه النظرة التى تفحصنى بها وانا واقفة امامه فاغرة الفم أحملق فيه فى دهش وارتباك مما فعلت ، فاذا به ينهض ويتقدم نحوى ـ ولا تزال حمرة الخجل تطل من أديم وجهه ـ فيتمتم ويبرجم كلاما لم افقه منه شيئا ، لعله يكون اعتذارا عن حدته او عن غفلته عن نماء عودى واستواء قدى حتى ذلك الاوان . ولكن نور الحقيقة غمر سريرتى على حين غرة فوعيت مالم أع من قبل ، واحمر وجهى بأشد مما احمر به وجهه ، حتى أطاش الحياء والخفر ماكان لى من جأش وبديهة فغطيت وجهى بيدى وانطلقت أعدو هاربة الى غرفتى .. هاربة منه ، ومن نفسى ، لو ان الى الفرار من نفسى سبيلا ...

بـــارقــة رجـــاء

رباه أين أخفى عنـــه وجهي وأستر عن عينيه عاري ؟ لقـــد وجدني ـ أنا الآنسة الناضجة الصبا ـ فى حجرته، وهو الشاب العزب وتلك لعمري كبـــيرة الكبر ...

... ومضـت ثلاثة ايام لم أخرج فيهـــا من غرفتي ، حتى لايراني بوكروفســكي ، وكنت اذا سمعت خطوه خارجا او داخلا غامت بالدمع عيناي لفرط ماينتدفع الى وجهى من الدم الدافق الحار ثم اخذت تراودني افكار اتأملها الان فأجدها غريبة سخيفـــة مضحكة ، ولـــكنها كانت وهي مستولية على تبدو لى وجيهة واجبة الاداء ... فقد هممت مثلا اكثر من مرة ان أتوجه الى غرفتـــه لاشرح له حقيقة دوافعي لزيارة غرفته أثناء غيـابه ، فلايذهب به الظن الى ما لم يكن من همي ولا خطر لى على بال ، فأى محنة لوجداني أن يحسبني طفلة تعبث بما ليس لها أن تمد يدها اليه ، أنا التى ماأقدمت على هذه الفعلة الا طمعا فى الارتفـــاع بمكانتي عنده ..

وددت لو عرف الحقيقة حتى اكبر في عينيه . ولكن شجاعتي خانتني وقعدت بى عن تحقيق ماراودتني عليه نفسى .. الى أن مرضت والدتى بعد بضعة ايام مرضا شديدا الزمها فراشهـــا يومين . فلما كانت الليلة الثالثة غشيتها الحمى حتى اسلمتهـــا الى الهذيان . وكنت قد سهرت الى جوار فراشها الليلة السابقة فلم يغمض لى جفن، حرصا مني على خدمتها وقضاء حوائجها واعطائها الدواء في أوانه الموقوت ، فلم أستطع فى هـــذه الليلة مقاومة النعاس ، ولم تطاوعني نفسي على الاستسلام له ،فبقيت على مقعدى يتقاذفني الوسن واليقظة ، ويكاد اعيـــائى الشـــديد ينتهى بى الى الاغماء ... فما اغفـــو برهة حتى يوقظني انـــين امى

المدنفة ، فأهب من نومي فزعـةوافتح اجفاني الثقال لحظة ،ثم يغلبني التعب والكرى فاقفلهـاواغوص في غيبوبة مالهـا من قرار ٠

وطالت نوبة نعاسي آخر الامروراًيت فيما يرى النائم حلمـا اقض نومي ، فانتبهت مذعـورةمبهورة الانفـاس ، فاذا ذبالة المصباح تجود بانفاسها الاخيرة،وقد خيمت الظلمة على الغرفة ، فخيل الى انها امتداد محسـوس لحلمي الفظيع ، فقفزت منمكاني واطلقت صرخـة ندت عني دون أن أعي ٠٠٠ فاذا بابنا يفتح في تلك اللحظة،واذا «بوكروفسكي» يدخل منه ٠

ـ ولست اذكـر الان من تلك الليلة الا انه كان يسـندني بذراعه عندما استفقت من غشيتي وثبت الى نفسي ، فأجلسني في رقة وعناية وقدم لي قـدحا من الماء ، ثم اخذ يمطرني وابلا من الاسئلة ٠ ولا ادري بم اجبته، فانه تناول يدي في يديه وقال لي:

ـ اراك مريضة ، مريضة جدا، فحرارتك مرتفعة ٠٠٠ واحسبك تنزلين بصحتك ضررا محققا بما ترهقين به نفسك من خـدمة والدتك وتمريضها ٠ فارقـدي الان واستسلمي للنوم ،وسأوقظك بعد ساعتين ٠

فلما هممت بالاعتراض ، قال في الحاح المترفق :

ـ لا تتكلمي ٠ اسـتريحي وهدئي من ثائرة اعصابك المتوترة قليلا ٠ فهـذا ألزم ماينبغي لك الان ٠

وكان الاعياء قد استنفـدمقاومتي ، فما سمعت كلماته تلك حتى اقفلت اجفـاني ونمت مضطجعة في مقعدي ، وفي عزمي ان استيقظ بعد ساعة او أقـل من ساعة ٠٠ ولكني نمت حتى الصـباح ! فـلم يوقظني بوكروفسكي الذي سهر على أمي تلك الليلة الا حـين آن أن أسقيها جرعة الدواء ٠٠

وأصبت في ذلك النهار قسطا من الراحة ، ليسعني ان أسهر في الليلة التاليـــة على والدتي مصممة عـلى مقاومة الوسن حتى مطلع النهار • ولكن ما ســـجا الليل حتى طـرق بوكروفسكي باب غرفتنا ، وكانت الســاعة قد بلغت الحادية عشرة ،ففتحت الباب ، فاذا به يقـــول لى في لطف ورفق :

ـ لقد خطر لى انك قـــــــد تسأمين الوحدة في ســهرتك ، فأتيتك برفيق انيس ، هو هذا الكتاب •••

فتناولت الـــــكتاب من يده وانصرف ، ولست اذكر ماذا كان عنوان هذا الكتاب ، ولا احسبني فتحته ، وان كنت قد قضـــيت ليلتي تلك ساهرة لم اذق طعم الكرى ، فقد كان ضميري مسرحا لشعور غامض ولكنه جياش ذادعني الوسن وابقى وعيى مركزا في بؤره مشاعري المضطربة الامواج

بيد أن ذلك الاضطراب الذى ســــــهدني كان مـن العـنف بحيث أقضى مجلسي ، فلم أستطع التلبث في معقدي على استقرار ، فما اكـــثر ما قمت اتمشى في الحجرة على اطراف اصابعي •

ولكن حاشا ان يشتبه هــــذا القلق بما يورثه الحزن والهم من اضطراب وأسى •• كلا ! فقلقي تلك الليلة قلق جلو ، مرده الى فيض السعادة التى امتلاءت بها جوانحي حتى ضاقت عنها ،فراحت تنشد لطاقتها الفائضة مخـرجا في الحركة ، ولولا مرض امي لتلمست متنفسا لها في الغناء• فقد سرني اهتمام بوكروفسكي بشأني ولمست قلبي « لفتتـة »حتى ملأتني زهوا ، وفتحت لى باب الاحلام الذهبية فرحت اعب منها تلك الليلة ما وسع خيــالي الخصيب ان يسعف روحي الظماى بالاكواب المترعة بعد الاكواب من نبع تلك الاحلام ورحيقها المصفى

وقد صمد خيالي لظمأ روحي، وظل ساهرا معها يسقيها كؤوس

الاحلام حتى مطلع النهار . فلم يطرق بوكروفسكى الباب طول الليل سائلا او متعللا بالسؤال وكنت اعلم انه لن يفعل ، ولكنى كنت سعيدة ، وكنت راضية بالانتظار الى المساء التالى ،واثقة انه سيعود حينئذ الى السؤال والعطف ...

... وجاء المساء التالى ،ووقف بوكروفسكى بباب غرفته يعالج فتحه بمفتاحه ، وكان باب حجرتى مفتوحا فحيانى وسألنى عن حال امى وعن حالى .ولست اذكر عبارة واحدة مما تبادلنامن الحديث ليلتئذ ، فقد كان الحياء يفتت اعصابى ويمزق اوصالى ويشل وعيى .. حتى لقد استعجلت نهاية هذا الحديث الذى بت ليلتى وقضيت سحابة نهارى احلم بدنو ساعته !

أهذا هو الحب ؟ ماذا فيه اذن مما تصرخ اعماق النفس فى طلبه وتشهيه ؟

كلا ! انه ليس حلو المذاق ،وليس كالشهد المصفى ، ولكنه مع هذا منية القلب وطلبة الروح ...

وليس من دليل على هذا أكبر من ان تلك الليلة بالذات كانت بداية صداقتنا الصريحة الصافية ، فكان عينا وضيقنا واضطرابنا فى الكلام بمثابة اوجاع المخاض التى ولدت تلك الصداقة الجميلة الطاهرة ...وبتنا نقضى كل ليلة من ليالى مرض والدتى الطويل بضع ساعات فى صحبة ناعمة الى جوار فراشها ...

وتكفلت الليالى المتعاقبة بالقضاء على فيض حيائى ، ومهدت أمام عقلى الطريق الى رباطة الجأش والسلوك المتزن ... وان كنت قد بقيت على ما اعهده فى نفسى من الشعور بالتخلف عن السمت اللائق .

وقد أثلج صدرى ان اراه يهمل كتبه المعبودة لديه فى سبيل

الجلوس الى والعناية بأمرى وامرامى من اجلى ... فتفتحت نفسى لصداقته وزادت ثقتى بها .

وفى ذات يوم جرنا الحديث الى حادث المكتبة التى عبثت بها فى حجرته حتى وقعت الكتب على ارضها ، فاذا بموجة من الصراحة تجرفنى فى تيارها ، فأصارحه بالحقيقة كاملة ، ولا اكتمه ان دافعى الى ذلك العمل هو رغبتى الملحة فى تثقيف عقلى حتى تتغير نظرته الى فأعدو عنده طور الطفولة الى مرحلة انداده من الشباب .

وانها لجـــرأة منى لا ادرى كيف واتتنى ، ولكن صداقتنـــا كانت من الصفاء بحيث تقتلـع الحواجز والاستار ولا تبـــالى القيود والتقاليد والمواضعات .. فاعترفت له بالحقيقة والدموع تتلألأ فى عينى ... وصارحته بما كان يعتلج فى اعمـاقى من رغبة قوية فى كسب مودته ، بل فى حبه ومزج حياتى بحياته .

وكان بوكروفسكى يصغى لى وهو مبهوت ، فلم ينطق بكلمة ، حتى خيل الى انه لم يفقه ماقلت له . او انه يسخر منى فى طوايا سريرته ... فسرت فى نفسى موجة من الكآبة عاتية ، وطفـر الدمع من عينى ، ثم اجهشـت باكية ، كما يبكى الاطفال فى غير احتجاز .. ثم انقلب البكاء الى نشيج يتفزز منه جسـدى كله وتختلج به جوارحى ، فتنـاول راحتى بين راحتيه ، ووضـعها فوق صدره ، ثم غمرها بقبلاته فى رقة وحنان ، وجعل يناجينى فى صوت هادىء عطوف .

ولست اذكر الان ماذا قال لى حينذاك ، ولكنى اذكر تمام الذكر اننى جعلت أبكى وأضحك وأنا اسمعه طورا بعد طـور ، وان الحمرة والاكفهرار كانا يختلفان على وجهى .. وان الحـــرارة والبرودة كانتا تصـطرعان فى اطرافى ، وان الكلمات هربت من فمى حتى لقد شككت فى وجود لسانى ...

وهدأ من روعى وسكن من طائرى ان بوكروفسكى جعل يبادلنى ودا بود ، واتقاد عاطفة باتقاد عاطفة ، وانجاب عنه الذهول لما فوجىء به من عاطفة لم يكن يتوقع لها وجودا فى حنايا صدرى . فسرت حرارة النشوة الى كيانى ، وادفأت قلبى المقرور ، وبت ناعمة بسعادة لم اذق من قبل لمثلها طعما . ولم اكتمه مبلغ سعادتى بحبه وقربه فزادنى هذا الاعتراف من قلبه قربى ، فنمت محبته لى على الايام ، بل على الساعات ، نماء متصلا مطردا .

وما كانت احاديثنا فى تلك الليالى الحلوة شيئا مما يدون او يذكر ، فهى سمر تافه الموضوع ولكن النور الذى كان يدفىء قلبينا كان يشرق على تلك الاحاديث فنحسبها وضيئة مشرقة البيان .

لقد كانت تلك الاحاديث جدولا رقراقا يتدفق من نفسينا فى غير تعمل او تكلف . وفى ذلك التدفق الجميل الصافى سر عذوبتها وشجاها ، وحسن جرسها وصداها ، وطيب عرفها ورياها فهى اصداء نفسين تتفتحان بعد طول احتباس ، وتشرقان بعد ظلمة وطول تخبط والتماس .. ومازالت تلك الاحاديث التى طوى عهدها الزمن الساطى نورا لى ـ على ما تثيره من الالم عندى ـ كلما حزبنى أمر وتكاثرت على الاحزان ..

*

... وتماثلت أمى للشفاء ، ولكنى بقيت على عادة السهر بجوار فراشها ، فكان بوكروفسكى يمدنى بالكتب اقرؤها فى سهرى فكنت اقرؤها اول الامر ذودا للنوم عن اجفانى ، ثم صرت أقرؤها تشوقا الى المعرفة وتلهفا على الاطلاع .. فقد فتحت أمامى افاق جديدة لم اكن احس لها من قبل وجودا ، وبت ارى وجدانى يزداد على الايام عمقا واتساعا وغنى .

بارقة رجاء

فلما برئت امى من علتهـــا وغادرت فراشها ، انتهت ليالى السهر والسمر ، واصبحت فرصة الحديث أمامنا لاتسنح الا خلسا قصارا لا تنقع غـلة ولا تشفي اوارا ٠٠ وانما هو السـلام وما يلحق بالسلام من مبتـــذل الكلام ٠٠ بيد انى كنت أحس لتلك العبارات العابرة طعما غير طعم سائر الكلام ، لان الفقـر فى زاد حبنا الخارجى كان هينا علينا بما فى قلبينـــا من زاد لا ينفد ، وما فى نفسينا من غنى روحى وطمأنينة لا تقوى عليهـا زعازع الحرمان ٠٠٠

عيد الحبيب

... انقضت على هذا النسق جملة اسابيع ، ثم حضر بوكروفسكي الاب لزيارتنا ذات صباح ، واخذ يجاذبنا اطراف الحديث ، في جذل وخفة رشيقة لم نعهدهما فيه من قبل ، فكانت لحديثه طلاوة فكهة اشاعت السرور في نفسه ونفسينا ... ثم كشف لنا عن موضوع زيارته فاذا عيد ميلاد « بتينكا » (وهو اسم التدليل لبوكروفسكي) يحل بعد أسبوع ، وانه ينوي ان يزور ولده في هذه المناسبة محتفلا بها في هندامه وبزته اكبر احتفال مستطاع ، فيرتدي صدارا جديدا ، وينتعل حذاء وعدته زوجته ان تشتريه له .. وقد استخفته هذه الاحلام الساذجة حتى لم يعد يستطيع كتمانها في صدره ، فجاء الينا لنشاركه في نشوتها لما يعرفه من مكانة ولده لدينا ، انا وامي

ولم يدر بخلد الرجل انه احدث في نفسي أثرا عظيما بهذا الخبر فلم يهدأ لي من بعده عيش لكثرة مافكرت في هدية اهديها اليه ، تذكره بصداقتي الراسخة العميقة الجذور في قلبي . ولم يهدني التفكير الى هدية اليق به من كتاب او مجموعة كتب . وكنت اعرف انه كان يشتهي اقتناء مجموعة بوكشين الشاعر كاملة في طبعتها الاخيرة ، فعزمت على شرائها لتكون هديتي اليه . وكنت ادخر ثلاثين روبلا ، لاشتري بها لنفسي ثوبا جديدا فأرسلت طاهيتنا العجوز « ماترينا » لتسأل عن ثمن مجموعة بوشكين الكاملة ، فاتضح ان الاجزاء الاحد عشر لايقل ثمنها مجلدة عن ستين روبلا ، فحرت كيف ادبر بقية هذا المبلغ ، وكرهت ان اطلب من والدتي شيئا ، حتى لايفتضح في البيت كله أمر الهدية قبل موعدها ، وقد يساء فهمها فيظن انها بمثابة أجر عن دروس عام كامل تلقيتها عليه مع « ساشا » وذلك أمر لم يجل لي بخاطر ،

لاننى لا أريد قضاء ذلك الدين ،استبقاء ليده على ، فالايادى دين ثقيل ، ولكنها اذا كانت ممـــن نحب كانت اعز مايحرص الانسان عليه وآنس ما يأنس اليه ٠

ووجدت لى مخرجا آخر الامر من هذا المأزق ، فقد تذكرت ان من الوراقـين من يبيـع الـكتب المســتعملة ، وفيها كتب تـكاد تكون جديدة ، بثمن بخس دراهم معدودات ٠ فلما كان الغد خرجت لاشترى لامى بعض حوائجهـــا ومررت بدكاكين أولئك الوراقين ومعى طاهيتنا « ماترينا »

واسعدنى الحـــظ فعثرت دون بحث طويل عـــلى مجموعة بوكشين مجلدة تجليدا فاخرا ،فاذا به يطلب ثمنا لها سبعـــين روبلا ،جعلت تتضاءل بالمساومة حتى هبطت الى خمسة وثلاثين روبلا ، تزيد على روبلاتى الثلاثين بمقدار خمسة روبلات ، فحرت ماذا افعل ، وكدت ابكى قهرا ،والرجل لايلين ولا يتزحزح ٠٠٠ والطاهية العجوز تضرب كفا بكف لما ترى من جنتى المباغتة باقتناء الكتب ٠٠

وهممت ان انصرف قانطـــة حسرى ، لولا اننى رأيت فى هذه اللحظة رجلا لم يجل بخاطـــرى ان أراه فى ذلك المكان قط ، هو بوكروفسكى الشيخ ، ومن حوله خمسة وراقين يتنازعونه العروض وهو حائر لايدرى ايها يأخذ وايها يدع ٠٠ فما أحسبه يدرى عن تلك السلع الادبية شيئا ، فناديته ،فخف الى مسرورا بلقائى وقال لى انه بسبيل شراء كتب يهديها الى ولده فى عيد ميـلاده ٠٠ وكانت ميزانية تلك الهدية لاتعدو ستة روبلات ، فقنع لذلك بالســؤال عن قيمة الكتب الصغيرة الحجم ،أما الكتب الضخام الجسام فلـم يجرؤ على السؤال عنها وان ظـل يرمقها بنظرات الحسد والكمـد والاشتهاء ! ثم رأيت دمعه تترقرق فى عينيه وتنساب على خـــده

المتغضن فى صمت ، فسحبته من يده وقلت له ما انا بصـــدده ، وطلبت منه روبلات خمســـة استكمل بها ثمن اعمال بوكشين الكاملة في احد عشر جزءا جميلة التجليد ، لنقدمها هدية مشتركة بيننا الى « بيتنكا » ، فكاد يجـن جنون الرجل من شدة الفرح ، وأدى المبلغ وحمل الكتب فى خفة الشباب وانطلق بها الى بيته ، واعدا ان يأتينى بها غدا فى الخفاء

فلما كان الغد دخل علينـــا الشيخ ، ثم همس فى أذنى انه استودع الكتب « ماترينـــا » لتحفظها فى المطبـخ الى الوقت المعلوم . ثم أفاض فى الحديث عن هديتنا وكيف نقدمها ، وكأنه فى تصوراته تلك مراهق يحلم بوصل عروس احلامه اللعوب ! فمـــا أكثر ماراجع التفصيلات وعدل منها مرة بعد مرة ، وانا اصغى اليه صامتة مستمتعة بنشـــوته الابوية الحانية .. واذا بذلك كله يتلاشى على حين غرة ، لترتسم على معارف وجهه كآبة شديدة ، وسكت لحظة ثم قال :

ــ اسمعى يابربارة الكسيفنا . خذى انت عشرة اجزاء فقدميهـا اليه هدية منك مستقلة ، اما انا فسأقدم اليه الجزء الحادى عشر هدية مستقلة منى . وبذلك يهديه كل منا شيئا على حدة .

ــ ولكن لماذا عدلت عن مشاركتى فى هدية واحدة على الشيوع بيننا ؟ أليس ذلك أجمل وأولى ؟

ــ كلا يابربارة . فأنا رجـل كثيرا ما اضل عن الطريق السوى فيلحانى باتينكا ويوبخنى ويعظنى ولكنى رجل ضعيف امام الغواية ، وقد تصطلح على الهموم ممـــا تصبه امرأتى على رأسى ، ويتآمر البرد مع الهموم فيدفعان بى الى حان أراه فى طريقى وكأنه يفتـــح دراعيه وينادينى نداء حـوريات الماء التى تفتن سامعها فلا يستطيع لها دفعا ، فاشرب حتى أثمل .. فأحببت بتقديم هذا الجزء هـدية

مستقلة منى ان اقيم له الدليل على استقامتى ، فلولا اننى ادخرت دريهماتى ولم انفقها فى حبائل الشيطان لما استطعت تدبير ثمنها وسيدرك باتينكا اننى مافعلت ذلك الا حبا له واستجلابا لرضاه

فشعرت بشفقة شديدة على هذا الشيخ المسكين الذى ردته شقوته الى سذاجة الطفولة ، وقلت له :

ـ قدم له أنت الاجزاء الاحد عشر جميعا يازكريا بتروفتش !

ـ كلها ؟ كيف هذا ؟ أأقدمها على أنها هدية منى أنا وحدى ؟

ـ طبعا ..

فسكت لحظة ثم قال فى صوت كأنه صوت حالم ينطق وهو غاف :

ـ كم يكون ذلك جميلا ! ولكن ماذا تقدمين أنت يابربارة ؟

ـ يازكريا بتروفتش . ان هديتى ان اراك سعيدا بما اهديت الى ولدك ، وان ارى ولدك سعيدا بما أهداه ابوه . ويكفينى ان أسعد فى قرارة نفسى بأن هذه السعادة التى غمرتكما قد قدمتها وصنعتها يدى فى الخفاء !

فاقتنع بتلك الحجة ، ومكث عندنا ساعتين لايستقر فى مكان من فرط الفرح والانتعاش ، وكأنه طفل صغير وعده ابوه بنزهة فى حديقة الحيوان ، فهو يداعب ساشا وكأنه من لداتها ، ويتغنى بما يعرفه من الاناشيد ، ثم يميل فوقى فيقبلنى خلسة ، او يقرص ذراعى . فما رأيت فى حياتى أحدا استخفه الفرح كما استخف ذلك الشيخ يومنا هذا .

فلما حل اليوم الموعود حضر الى بيتنا فى تمام الحادية عشرة ، عقيب انتهاء الصلاة فى الكنيسة نظيف الهندام حسن الزينة . فدخل علينا وفى يديه لفافتان من الكتب ، فوجدنا مجتمعين عند « انا فيودروفنا » لاحتساء القهوة على عادتنا يوم الاحد .

فبدأ بالكلام عن بوشكين ، فذكر انه شاعر من خير من نظم القوافى باللسان الروسى ، ثم تلعثم وارتج عليه فلم يدر كيف ينتقل من تلك المقدمة الادبيــة الى صلب خطبته ، فترك محاولة التمهيد ودخل فى الموضوع منوها بفضائل الاستقامة ، وان البغى يحيــق بأهله ، وضرب لذلك الامثــال مثنى وثلاث ورباع ، ثم اختتــم مقــالته بأنه تاب واناب وترك الضلالات والمفاسد منذ حين ، واستجاب لرغبة ولده المحبوب فصار من القوم الصــالحين .. فهو لا يحتسى الخمر ولا يتشهاها فأفاء ذلك عليه صحة وطمأنينة نفس ، وافاده يسرا فى المال بعد عسرة واتاح له ان يهــدى ولده الحبيب تلك المجلدات الحســان بما ادخره فى زمن توبته الاخير ..

وقد وجدت عناء شديدا ، فى مغالبة ضحكى اول الحديث ثم فى مغالبة دمعى فى أخراه ، فما أبرعه فى الكذب حــين يقتضى الحال منــه أن يكذب ، ولــكن باعث الكذب شعور جميل يلمس كل قلب للرحمة فيــه موضع وللحنان عنده معنى ..

وحمل الشيخ هديته الى حجرة ولده ، فوضعها على رف المكتبة . ثم دعوناه الى الغداء معنا فقبــل الدعوة جــذلان ، وقضى معنــا سحابة النهار فى سعادة غمرتنا جميعا بأشعتها الدافئة .

واحسب بوكروفسكى قد ادرك الحقيقة لاول وهلة ، فقد كان دائم اللطف والرعاية لى ، وكانت فى عينيه ومضات رقاق . وما اكثر ما تلمس الفرصة كى يحدثنى على انفراد ، ولكنى كنت افوت عليه ما يريد ، رائغة منه روغان التدلل والانتشاء بأفاويق السعادة التى حفل بها يومنا الفريد كأنه الغرة فى جبين الدهر ..

لقد كان يومى ذاك اسعد ايامى فى سنوات اربع من حياة طالمــا خيمت عليها ظلمة الشقاء ..

رياح الخريف

لقد سعدت سحابة نهار أقصى مايسعد به أبناء الفناء . ولكن سعادات دنيانا « سحائب صيف عن قريب تقشع » ..

مضت أيام الهناء المشرقات ، وخل وشيكا شبح الكآبة الذى أراد الله أن يرين على أيامى بعدذلك ، حتى وقتنا هذا ..

وكأنما استشعر القلم فى يدى انه لم يبق أمامه من كلام يسطره الا مايقطر حـزنا ويثير اللوعة والحسرات .. فغدا ثقيل الحركة، بطىء الخطو ، كالمشفق ممـا سيخطه فى صفحة القرطاس .

لقد هبت رياح الخريف الباردة الهوجاء فبددت دفء أيامى وقوضت صروح أحلامى ، كأنها بناء من الرمال ، فاذا بها ذرات فى قبضة الهواء ، وهباء ضائع فى خلاء ..

وكانت فاتحة تلك الاحزان علة بوكروفسكى التى ألزمته الفراش حينا ، ثم أسكنته رمسه الى يوم يبعثون .

فقد قضى بوكروفسـكى أسابيع تباعا يبحث عن عمل ثابت، فلم يجـد الا وظائف التدريس وأعمال الدواوين ، وهى كلهـا مما لاتسمح له صحته الواهنة أن يزاولها . . فقـد كان بوكروفسكى مصابا بذات الصدر منذ سنوات ..

وأضناه هذا البحث الدائب عن العمل ، ولكنه لم يلق الى ضعف صحته بالا ، حتى أقبل الخريف، وليس لديه مايـكفل له الدفء الواجب فى روحاته وغدواته . وصار أيسر الماء يجد من نعليـه البالين منفذا الى قدميه .. وهو لايكترث لشىء من هذا فى سبيل الحصول على عمل وطيد .

له الله ! لقد كان ذلك المصدور الشاب متعلقا بالحياة كبير الآمال فى بقاء طويل .. ولكن الداء لم يترفق بآماله الـكبار ، فألزمه فراشه ذات يوم فلم يبرحه بعدذلك أبدا الا فى صندوق مقفل، الى حفرة فى الثرى ، فى أخريات اكتوبر ، ورياح الخريف الهوجاء

تصفر في الارض الخلاء كأنهـا عزيف الجن أو أنات ثاكل محزون.

لزم بوكروفسكي فراشه ، ولزمت أنا جواره لا أبرحه مـدة رقاده وضـناه ، فكم من ليلة قضيتها الى جانب سريره ساهرة العين ، مؤرقة الجفن ، واجفـة الفؤاد .

ولم يكن كامل الوعي في جميع أحواله ، فما أكثر ماكان يهذى بكتبه وأوراقه ، وبالعمل الذي ينشده فلا يعطاه ، وبأبيه .. وبي أنا .. فعرفت من هذيانه مالم أكن أعرف من خبايا حياته.

وكان من في البيت يرمونني أول الامر بنظرات العجب والانكار ، ولكنني لم أغض الطرف ، فما كان فيما آتي شيء أخزى له أو أغضى ، فتركوني وشأني وسلموا بحقي في السهر على هذا المريض المنكود ..

وزادت وطأة العلة عليه يوما بعد يوم ، فصار لايفيق من هذيانه ويثوب الى رشده الا لماما ... فنهاره أنين ، وليله فـزع وهذر محموم ، ينـاجي ربه أو يناجي نفسه ، أو يتحسر على مافاته من طلاب ، أو يندم على مافرط منه من هفوات الشباب . وهو في نجواه لايسـتقر من رعدة ، ولا يهدأ من تفزز ، فكأنه لديغ مشف على الهلاك . فكانت «آنافيودروفنا» تضرع الى الله أن يرفع عنه هذا العذاب ويخلصه من نزعه الاليم فيضمه اليه ..

ودعونا الطبيب ذات مساء ، فقال ان المريض قد دنت نهايته ، وانه ملاق قضـاءه المحتوم زهاء الصباح من غد . فقضى بوكروفسكي الوالد الشيخ تلك الليلة قائمـا في الردهة أمام باب ولده المحتضر ، وكان يدخل عليه في الحين بعد الحين ليلقي عليه نظرة جامدة .. فقد أذهل الجزع الشيخ وسلبه ذماء نشاطه وحيويته ، فهو متبلد الحس كالمعتوه لا يحير قولا ، ولا يملك نفعا ولا ضرا .. وانما هو

يسر الى نفســه كلاما لامعنى لهولااتصال بين أطرافه ٠٠ حتى لقد خيل الى أن الاب المسكين قدأصابته جنة أو مسة خبال ٠

وقبيل الفجرغلب التعب جسدالشيخ فنام عــلى طريحة من الحشايا بسطت له فى الدهليز،فلماوافتالساعة الثامنة ،وبدأت غبرة الموت تسطو على محياولدهأيقظته ليودعه الوداع الاخير ٠

وكان بوكروفســكى فى تلكاليقظة التى يهبها الله للذاهبين اليه من عبــاده ، فودعنا جميعافردا فردا ٠٠

فيا الهى ! ما كان أشقانى ، وماكان أشد فجيعتى حتى لكأن نصالا تعملها يد سفاحفى شغافقلبى ٠٠ ولكنى مع هذا لم أجد فى عينى قطرة دمــع أذرفها ،لعلها تطفىء بعضماأجده منأوار الفراق ٠٠

وخانه لسانه بعد حين ،فكانيحاولالكلام فيلتوى عليهالكلام، فيشير بيديه فلا أفهم مايريد ،فجعلت أقرب منه كل شىء فى الغرفة ، وأدنى منه كل انسانفى البيت ، ولكنه كان يهــز رأسه سلبا ٠٠ حتى فهمتأخيراماكان يعنى ٠٠ ففتحت مصراعى النافذة ،وأزحت عنها الستار٠٠

فالشاب المسكين المتعلقبالحياة ومايمثله كل جميل فيهــا كان يشتهى أن يلقى نظرة أخيرة على نور الشمس ، والافق البعيد ، والسماء المشرقةبأضواءالصباح؛

ولكن هيهات ! ان الدهر أبىعليه حتى هــذا المطلب الاخير ، الزهيد ٠٠ فقد كانت السحبتغطى صــفحة السماء ، وكانت على الارض عتمة قابضة ، وفىالجو قتام ينذر بالمطر ، ويغرى بالبكاء ٠٠ بكاء الناس ، وبكاءالسماء ٠٠

ورمقنى الفتى المحروم بنظرةتقطر أسى واكتئابا ، وهزرأسه فى اذعان وجيع ٠٠

ثم مات ٠٠

عندما يموت الفقراء

مات بوكروفسكي في ضحوة النهار ، فنشطت «آنافيودروفنا» لتجهيزه ، حتى تغادر جثته بيتها فتتخلص من مصدر ضيق لو بقي هناك لاقض مضجعها . ومن عساه كان يهتم بالفتى الفقير ؟ أو الده المذهول المذهوب بلبه ؟

وماكان تجهيزه أمرا عسيرا : فان هو الا تابوت بسيط من أرخص أنواع الخشب ، وعربة نقل اكترتها بأرخص ماوسعها أن تكتريها . ولم تنس أن تتعوض عن هذه النفقات بالاستيلاء على كتب الفقيد وجميع ممتلكاته الشخصية ، وماأهونها . .

وقد اعترض الوالد المفجوع ، فمخلفات ولده تذكارات مقدسة في نظره ، ولكن اعتراضه لم يجده فتيلا ، لولا انه ثار وأنشأ يصرخ ، فخافت «آنافيودروفنا» العاقبة ، وتركت له من المجلدات ماتشبث به كالمجنون . فصار يملأ بهاقبعته البالية ، وجيوبه .

يا للأب المسكين ! لقد احتفظ بتلك الكتب في جيوبه وفي قبعته ثلاثة أيام لايفارقها ، حتى وهو في الكنيسة . . وماأحسب نفسا رأته يوم وفاة ولده الا ذهبت حسرة على هذا الشيخ المرزوء : فقد كان يروح ويجيء في حركة لاتفتر ، فاغر الفم ، شارد النظرة كمن يسير في حلم ، وله حول التابوت تطويف لاهدف له ولا غاية ، فهو يحف بمثوى ولده لانه لايستطيع عنه حيالا ولا زيالا ، ويسوى منه مالايحتاج الى استواء ، ويترفق بلمس خشب التابوت ويربت عليه كأنه يحس منه الملاينة والحدب . . أو يضيء الشموع ويقوم مااعوج منها بفعل الحرارة ، ويعيد ترتيبها حول التابوت كي تكون أتم زينة وأحسن نظاما . . ولم يكن في الكنيسة أحد سوانا ، فقد عاق المرض أمي عن الحضور ، وأما « أنافيودروفنا » فأحنقها شجارها مع بوكروفسكي الشيخ وأحفظها عليه فبقيت مع أمي . . فكنا ثلاثة في الكنيسة بين يدي الله .

الجسد الذى يصلى عليه ،والوالدالثاكل ، وأنا . . فلما بدأت الصلاة الخافتةوأخذت اصداؤها ترن فى الكنيسة الخالية غامت فجاج نفسى ، ورانتعليها كآبةلاحد لها ، كأنها نذر المستقبل القاتم الذىكان ينتظرنى بضرباته الشداد وفواجعه التى تفتت الاكباد وتفرى الاجلاد ..ولقيتعنتا شديدا فى البقاء الى نهاية الصلاة المبتسرة التى كانت كل ماليتمن الفقراء فى ذمة خدام الله ورعاة عهد الناصرى المولود فى مزود بقر ، والذى عاش بلامأوى حيث للطيور أوكار وللضوارى كهوف وأوجار ..

فلما أحكموا على التابوت غطاءه ، ودقوا فيه المسامير بدقات من المطرقة غير مترفقة بسكون البيعة وجلال الموت ، حملوه الى العربة ، فانطلق بها السائق لايلوى على شىء وصحبته راجلة الى نهاية الشارع الصغير ،

فما أن بلغناهذا الموضع حتى ساط السائق جياده فغذت السير خببا ،وأخذت العربة تبتعدعنا ،فجرى الوالد المفجوع وراءها ماطاوعته ساقاه الضعيفتان وهو يجأر بالبكاء بأعلى صوته ، ونشيجه الثائر الحمم يترجع فى صدره ويتقطع مع اهتزازات جسمه وهو يعدو .

وسقطت قبعته من فوق رأسه ، فلم يتلبث ليستعيدها ، بل تركها حيث هى على الارض واستأنف الجرى ،ولعله لم يحس بسقوطها .. وبلل المطر المنهمر رأسه العارى ، وأخذت الرياح القارسة العنيفة تهرأ وجهه ..فما أحس لذلك كله وقعا ، وهو يجرى كالمجنون حافا بالعربة عن يمين أو عن شمال ، باكيا بلا احتجاز ، والريح ترفع أطراف ثوبه وأذياله فكأنها أجنحة سود بسطها ملك من ملائكة العذاب فى وادى الحسرات من فجاج سقر .

وكانت الكتب تساقط من جيوبه وهو يجرى ، فلم يبق له منها الا سفر كان يتشبث به في يديه تشبثا غير واع ‥ وكان هـذا الموكب الصغير ، أصغر مواكب الموتى وأبسطها وأفقرها عـلى الاطلاق ، كلما مر بأحد من الناس أثار اللوعة والاسى في قلبه فرسم على صدره علامة الصليب

وعند منحنى الطريق لقيت الموكب سائلة عجوز كانت تستندى الاكف ، فما رأته حتى لحقت به وأنشأت تجرى بجوار الشـيخ وراء العـربة المسرعة ، التى لم تأخذ سائقها شفقة بهـذا الاب الشيخ الذى هـد العدو قواه ، فالراحة والمجاملة سلعة لايقوى على ثمنها الفقراء ‥ أما السائلة المعدمة فأدركت مبلغ مامنى به هذا الفقير من الشقاء ، فأسرعت تشاركه فى ثمالة الكأس دون أن تعرف من هو ‥ وماجدوى من هو ؟ لقد كفاها انه مسـكين ، وانه يتلقى الرزء الفادح وحيدا فى الحياة ، لانه مثلها ‥ انسان فقير .

وغابت العربة عن نظرى ، فعـدت الى البيت وارتميت عـلى صدر أمى ، وقد استولى على يأس قاتل ‥ وأخذت أقبلها وأضمها الى صدرى ضما عنيفا ، كأنما لاحس اننى لسـت وحدى ، ثم وضعت رأسي على صدرها وبكيت بـكاء طويلا ، وذراعاى حـول عنقها . . كأنما لاصونهـا من الفقدان وأمنع عنها يد العفاء التى انتزعت منى صديق روحى ‥

ولكن هيهات ، هيهات ! فان ملك الموت الاسود كان يحـوم حولها وينتهز الفرصـة المواتية للانقضاض . . .

رباه ! ماأظلم أيامى . .

عود على بدء

١١ يونية

من لى بشكرك يا مقار الكسيفتش على ما اتحت لى من الهناء بتلك الساعات التى قضيناها معامتنزهين فى أرباض المدينة وعلى شطآن نهر النيفابين الماء والهواء والخضرة اليانعة ‥ فما أبعد عهدى بتلك المناظر الحسان ٠

لقد خيل لى أثناء مرضى اننى لن أرى الطريق مرة أخرى ، فأنظر كيف كان شعورى وأنا أنعم بالنزهة بين النور والزهر والماء النمير ٠ ٠ فلئن ذرفت دمعتين بين يديك أمس ، فلا عليك ، فما هما الا من دموع الفرح الذى فاضت به جوانحى ‥ ومن الاسى أيضا يا صديقى فان سكون الاصيل ، وشمسه المائلة الى الغروب ، وهدوء الطبيعة الرحيبة الآفاق ، قد أثارت فى نفسى رواسب الاشجان ولا يثير الاشجان والاحزان مثل نقائضها من الافراح والمسرات ٠

تالله كم كنت كريما يا صديقى ! ٠ فقد شملتنى بحدبك وحنانك ، وطفقت ترنو الى عينى متعلقا بهما ، كأنما تريد أن تستشف مشاعرى ٠ وما كنت أبدى اعجابى بشجرة عتيقة أو جدول رقراق ، أو طريق ملتو كالثعبان بين العشب المزهر ، الا امتلأت باعجابى بها زهوا ، كأنها ملك يمينك ، وكأنك رب الضيعة الذى يثلج صدره أن يطرى الناس بستانه الموروث ! ألا ما أطيب قلبك يا صديقى مقار ! ان طيبة قلبك خير ما فيك ، وهى علة تعلقى بك وحبى لك ٠

والآن وداعا يا صديقى ، فقد تعبت من الكتابة ٠ ٠ فبالامس ابتلت قدماى وأصابنى من ذلك برد يسير أحس له اليوم فى بدنى هزة ٠ ٠ وفيدورا مريضة أيضا ‥

لا تنسنى يا صديقى ، وتعال لزيارتى ما استطعت .

بربارة

١٢ يونية

يامتى العزيزة بربارة ألكسيفنا !

لقد توقعت أن تأتينى منك قصيدة عصماء فى وصف نزهتنا الرائعة ، فاذا صفحة قصـيرة لاتنقع غلة الصادى .. ولكن عجبا! لقد جمعت فيهـا فأوعيت ، ولم تفتك شـاردة من منـاظر ذلك الريف الجميل . ولو حاولت ماحاولت لمـا كفتنى صفحـات وصفحات ، وهيهات ان أبلغ ما بلغته فى سطور معدودات .

وقد أثلج صدرى ما أضفيته على من قلائد المديح ، وما ذكرته من طيبة قلبى وصفاء نفسى ..وانى والله لكذلك !

وانى مجيبك الآن الى ما سألتنى مرارا من قصةحياتى . فقد دخلت الخدمة فى سن السـابعةعشرة ، وقضيت فيها حتى الآن ثلاثين سنة ،أفدت فيها تجربة ،ونضجت فيها سنى ومشاعرى . ولكن القدر سخر لى من تطوعوا للدس لىوالتهـوين من قدرى ، مسـتغلين طيبتى وحبى للعزلة والاعتـكاف ، فكل خطأ يقع من أحد يسندونه الى ظلما ، وهـذه يا أختاه ضريبـة الطيبة ومحبـة السلام !

وكذلك بقيت كما كنت منـذ ثلاثين سنة « نساخا » ، وكل ما هنـاك اننى « نسـاخ أول » ،فخطى جميـل ، وجميع أوراق سـعادة المدير أنا الذى أكتبهـا بيدى . وهوكما ترين عمل ليس ذا بال ، وان كنت أراه حسنا غيرمهين . ولكن النـاس يلقبوننى « بالفأر » لأننى أعيش دائما بين الاوراق ، وأدنيهـا من وجهى لضعف بصرى ..

لأكن اذن فأرا ، فأى ضير فى شبه الناس بالفيران ، أليس الفأر

مما خلق الله فى الدنيا لحكمة يعلمها سبحانه ؟

يؤسفنى اننى اندفعت هذا الاندفاع فى الحديث عن نفسى .. فعفوا يا يمامتى ، وعذرى انك مصدر عزائى الوحيدفى الحياة ، فاليك أتجه بأحزانى ملتمسا سلوتى عند قلبك الكبير .

سأزورك قريبا يا عزيزتى، وسأحمل اليك كتابا تتسلين بقراءته أما الآن فوداعا

صديقك المخلص

مقار ديوفشكين

٢٠ يونية

عزيزى السيد مقار الكسيفتش

أكتب اليك على عجلة من أمرى ، فلدى عمل يجب أن انتهى منه اليوم . وقد سمعت من « فيدورا » بصفقة لم أحبب أن تفوتك بحال : فثمت كسوة موظف كاملة ، فى حالة جيدة جدا معروضة للبيع بثمن معقول للغاية .. فلا تقل انك لاتملك شراءها، فقد قلت لى مرارا انك تدخر شيئا للطوارىء . وليس الشح مستحبا يا صديقى الى الدرجة التى تضن فيها على نفسك بزى لائق . ألا تنظر الى صورتك فى المرآة؟ ألا ترى كيف خلقت حلتك ونصل لونها ، وصارت للرقع فيها صولة وجولة ، حتى كاثرت فى مساحتها نسيجها الاصيل !ولست أصدق أن لديك كسوة أخرى جديدة ، وان كنت تكرر على مسمعى هذا الزعم فى كل مناسبة . فأتوسل اليك أن تشترى هذه الحلة يا صديقى ، من أجل خاطرى .

ثم ما هذا القماش الذى أهديتنيه ؟ انه قماش غالى الثمن ولاشك ، وما أراك الا تكلف نفسك رهقا بما تغمرنى به من الالطاف ، وما أكلفك فى نزهتى وعلاجى .. وما كنت بحاجة الى هذا القماش الفاخر فى الوقت الحاضر . فلماذا اشتريته ؟ انى اثقة انك تحبنى ، وليس عندى فى هذا شك ، وانه ليؤلمنى أن

تحسبنى بحـاجة الى ما يذكرنى حبك لى ، فأتوسل اليك أن تكف عن هذه الخطة يا عزيزى مقار

لقد طلبت منى أن أتم كتابة مذكراتى التى قرأت طرفا منها ، ولكنى وجدت ذلك عسيرا أليما ، فما حدث لى بعد وفاة أمى شديد الوقع على نفسى ، والجراح القريبة العهـد وشـيكا ما تنتكىء ، والنسيان ـ لو أطقتـه ـ مطلبى فكيف أسعى الى تجديدها بالذكر والتدوين ؟

لقد حدثتك فى آخر مقابلة لنا عن « آنا فيودروفنـا » وما ترمينى به من نـكران جميـلها وجحود أياديها ، وتنكر ما أتهمها به من تواطئهـا مع « السـيد » بيكو » عـلى الايقـاع بى بين براثنه . وتلح على أن أعـود الى الاقامة فى بيتها ، على وعد منها ان تحمل السـيد بيكوف عـلى اصلاح خطئه ، بل جنايته التى جناها على أنا اليتيمة التى ليس لها فى الحيـاة معين .. فيهبنى صداقا طيبـا ـ كمـا وهب أم بوكروفسكى من قبل ـ كى أجد من يتزوجنى طمعـا فى ذلك الصداق !

ولكنى أرفض هـذا العرض ، وأوثر البقـاء حيث أنا الآن ، ناعمة بصـداقتك ، وبصـحبة « فيدورا » التى يذكرنى ولاؤها مرضعتى العجـوز ، طيب الله ثراها .. وليس لتقولات الناس عندى أدنى اعتبار ، فانت قريبى ـ بعيـدة ما بعـدت صلة هـذه القرابة ـ ولست أريد شـيئا سوى هدوء البال ، وان يدعنى الناس وشأنى آمنة فى سربى .

بربارة

٢١ يونية

يامتى وأختى العزيزة !

لست أدرى كيف أبدأ الكتابة اليك بما أريد أن أخوض فيه . ألا يروعك يا أختاه نمط معيشتنا الراهن ، أنا وانت ؟ فما عرفت فى طول حياتى أياما أسـعد من أيامى هذه ، حتى لكأن الله قد من على بأسرة هانئة وبيت سعيد .. فانت يا فتاة طفلتى الصغيرة

المحبوبة ، ونور أيامى التى لم تعرف النور !
فأى عجب اذن أن أبعث اليك شيئا من قماش أعجبنى فأشتقت أن يكون عليك منه أربعة قمصان ؟ ثم لماذا تزعمين انك لست بحاجة اليه ؟ لقد علمت من « فيدورا » انك فى مسيس الحاجة الى قمصان ، وما دمت ابنتى فأى شىء أحب الى الاب المحب من قضاء حاجات فلذة كبده ؟ فكيف اذن تريدين حرمانى من تذوق هذه اللذة البريئة أيتها القاسية ؟ ..
أتعلمين اننى أخذت أشعر اننى أعيش حياتين وأحيا مرتين؟ فانت هناك ، وأنا هنا فى بيت يقابل بيتك .. فلى بيتان اذن وروحان .. فانت روحى يا بربارة لو تعلمين ..
لقد سمعت منك مرة انك بحاجة الى حرير ملون للتطريز .. وغدا سأشترى هذا الحرير ، فأنا أعرف أين يباع .. ودمت لصديقك المخلص

مقار ديوفشكين

٢٢ يونية

عزيزتى بربارة الكسيفنا .
لقد وقع يا صديقتى العزيزة فى بيتنا حادث مفجع جدير بأعمق عواطف الاسى والرثاء . فقد اختطفت يد الموت فى نحو الساعة الخامسة صباحا طفلا من أبناء مدام جورشكوف الثلاثة . ولا علم لى بما كان يشكو منه ، فعلم ذلك عند الله وحده .. وقد زرت بهذه المناسبة غرفة جورشكوف وآله ، فيالله يا أختاه ! ذلك حقا هو الفقر الموجع والشقاء المهين ! فالاسرة كلها تعيش فى هذه الحجرة الضيقة ، يفصل قسميها حاجز من قماش رقيق حفاظا على مقتضى الحياء .. وكانوا قد دبروا أمر التابوت ، فما رأيت أوجع للقلب من هذا التابوت البسيط ، الذى أعد لتطوى فيه نفس بلغت العاشرة من سنوات هذه الدنيا ، وبدأت تتفتح للحياة وتتطلع لافاويقها . فنحيت الكأس

عن شفتيها وحيل بينها وبين نور النهار !

كان هذا الغلام معقد آمال أبويه المسـكينين ، لقد كان ذكى الفؤاد ، عطوف القلب وديعا .. فانهـار الامل فى مطلع هـذا الصباح .

ولم تذرف الأم دمعة ، ولا أطلقت صرخة ، وانما هو الوجوم الشديد ،فى مسكنة وقنوط .. وأحسب المسكينة لم تخـرج من حسابها ان موت ولدها قد حل جانبا من معضـلتها اليوميـة الـكبرى : وهى اطعـام تلك الحواصل الزغب ، حواصل بنيها الجياع ..

أجل ، لقد أقفل الموت فما من الافواه الثلاثة .. ولـكن بقى فمان اثنان ، ومازال الاشـكال قائمـا ملحـا .. فأى عـذاب يا الهى يسامه هؤلاء الناس فى كل يوم من أيام حياتهم النكراء : فليس أوجـع للقـلوب من رؤية طفل يبكى جوعا ، وهذا الطفل فلذة كبد المرء ولحمه ودمه ، وهو لا يستطيع له شيئا ، ولا يدرى كيف يرد عنـه غائلة الوحش الذى ينهش امعاءه الخاوية !

أما الاب الوالد ، فكان قابعا فى مقعـده فى ثوبه الخـلق ، ودموعه تنساب على صفحة خده فى صمت .. ولعل تلك الدموع لم تكن دمـوع الفجيعة ، فقـد طبعت الفاقة المذلة عينيه بطابع دامع على الدوام ..

وأما ابنته التى لا تجاوز السادسة فكانت متكئة فى وقفتها على التابوت ، تنظر الى أمام دون أن تنبس ببنت شـفة .. وقـد استغرقها تفكير حزين .

رباه ! شد ما أكره أن يصمت الاطفال ويستغرقوا فى التفـكير قبل الاوان .. فما الطفولة الا لعب وانطلاق ، أما الكآبة يا الهى ففظيع جدا أن يرمى بها الاطفال!

لقد عرضت عليها ربة الدار قطعة من الحلوى ، فلفظتها في صمت وهدوء ، كأنها شيخ فان عافت نفسه طعوم الحياة وحلاوتها المشتهاة .

ان هذا فظيع .. فظيع جدا يا أختاه

مقار ديوفشكين

مفرق الطرق

٢٧ يونيه

عزيزى السيد مقار

تؤكد لى فيدورا ان فى وسعى ان احصل على عمل طيب فى اسرة فاضلة ، أقوم على تربية أطفالها الصغار ، فليس فى عمل القهرمانة عار . فما رأيك انت يا صديقى ؟ أأقدم أم أحجم ؟

ان هذا العمل سيرفع عنك عبء كفالتى ، وهو عبء أراه ثقيلا أود من كل قلبى لو تخففت منه . ولكن قلبى لا يطاوعنى على الاطمئنان الى الحياة فى بيت غريب بين قوم غرباء ... وانا اخشى الغرباء ، فأول ماسيعنون به هو سؤالى عن ماضى حياتى ، وأنا لا أحب أن أكشف جراح قلبى لكل انسان .. ثم أنت تعرفنى نفورا لا آنس الى الناس فى يسر ، ولست احب فراق من انست اليهم ، أو تبديل ما ألفته من نمط الحياة .. وان الى ما هو خير ...

يضاف الى ذلك ان هذه الاسرة تقطن حيا بعيدا عن هنا ، فاستشعر الوحشة لذلك البعد أيها الجار الصديق . وليس فى ظروفهم ما يشجع على الثقة بهم فقد استبدلوا بقهرمانتهم اخرى ثلاث مرات فى سنتين ، فقد يكونون من أهل الغطرسة أو الغلظة وسوء الطوية

انى حائرة يا صاحبى فأصدقنى النصيحة . ثم لماذا انقطعت عن زيارتى ؟ انى لم أعد أراك أو أجتمع بك الا فى قداس يوم الاحد ، فيالك من معتزل نفور ! وانك فى هذا لصنوى .. ولكن تذكر انك من ذوى قرباى ، وان شعورى بالوحدة يثقل على صدرى . واشد ما يكون ذلك الشعور فى ساعات الغسق ، عندما تخرج فيدورا لشراء مايلزمنا من السوق ، فاذا بخيالات الماضى ترود حولى ، حتى ليخيل الى انى أراها رأى العيان ...

يا لله ما أشقانى بهذه الرؤى ! وانها لتنال من صحتى وعافيتى

أيما منال .. وها هوذا السعال المقض قد انتابنى كرة أخرى ، حتى بت أشعر بدنو أجلى ..

فمن يا ترى سيعنى نفسه بتجهيزى ؟ من الذى سينتقى لى التابوت ، ومن الذى سيدرجنى فى أثوابى ويزيننى للموت ؟ ومن الذى سيسير خلف نعشى ويصحبنى الى مقرى الاخير ؟ ومن سيبكينى ليرطب ثراى بدمعه ؟

هل كتب لى الله فى أزلى علمه أن أموت فى بيت غريب ، بين قوم غرباء ، فلا يقوم على رحلتى الاخيرة أحد ، ولا يؤنس ليلتى الاخيرة فى الدنيا مدمع حميم ؟

ألا تعسا للحياة ؟

بربارة

٢٨ يونيه

أختى الصغيرة بربارة !

ما هذا الهذر الذى يبيض فى رأسك الصغير ويفرخ ، فيشقى له قلبك فى غير مدعاة للجزع والعناء ؟ وكيف سولت لك نفسك أن تتوهمين المرض الوبيل فى عارض تافه ؟ وما حدا بك الى الاعتقاد بتداعى صحتك وذهاب عافيتك ؟ انى أراك على العكس ، ريانة كالزهرة المونقة ، تنفح روحا وريحانا ، وأرى للعافية فى وجنتيك وأعطافك ماء يجرى ويكاد يتفجر بالقوة والشباب .

ثم ما هذه الاحلام البشعة يا أختاه ؟ اطرحيها من ذهنك ، واقتدى بى فى استدبار ما يحزن ويسبب تلك الكوابيس الثقال .

وما ذلك الحديث الذى تسوقينه عن العمل أجيرة فى بيت قوم غرباء ؟ انه لرأى سقيم وتفكير غير مستقيم ... فأستحلفك ألا تفكرى فى شىء من هذا القبيل يا حياتى ، فماذا أفعل من بعدك ؟ اننى قمين أن أموت كمدا ، كما يموت السمك اذا أخرج من الماء

وماذا ينقصك فى حياتك الراهنة ؟ وأى شىء يسخطك عليها وينفرك منها ؟ ابقى حيث أنت ناعمة البال ، ولا تكلفى نفسك

مشقة التفكير فى شىء ، وسآتيك بكتب تقطعين بقراءتها الوقت . وقد نخرج يوما للنزهة فى أرباض المدينة ، كما خرجنا المرة السابقة وسآتى لزيارتك قريبا ، ولكن على أن تعدينى أولا ألا تعودى الى التفكير فى هجر جوارى الى مكان مجهول بين قوم غرباء .

وانى لك على الدوام

الصديق الوفى

مقار ديوفشكين

عزيزى مقار !

كلا يا صديقى . كلا ! لم يبق لى بهذه الحياة طاقة ولا عندى عليها صبر . فقد صح عندى أننى ارتكبت خطأ فادحا حين رفضت العمل الذى أتيح لى بعيدا عن هذا المحيط الذى نعيش فيه ... فقد كانت لذلك العمل مزية لا مرية فيها ، فهو يضمن لى على أقل القليل لقمة تقيم أودى وعيش كفاف لست أملك له اليوم ضمانا بأى وجه من الوجوه ... وكنت قمينة أن أروض نفسى على وحشة الغربة، وأن أحملها على ملاينة الناس ومداراتهم . ولعل هذا كان أجدى على من الانطواء السخيف على نفسى ..

وهل تراني ياصديقى لا أشعر بما أكلف من يحبوننى من المشقة والنفقة ؟ أأجهل أن « فيدورا » العجوز تنهض قبل مشرق الشمس كى تغسل ثيابى ، وتخدمنى ، وأنا عاجزة عن خدمة نفسى بما يشغلنى من التطريز أو بنوبات المرض ؟ وهل أجهل أنك تحمل نفسك ما لا تطيق من النفقات فى سبيلى ؟ واذا كان لديك الآن شىء من المال لأنك كوفئت مكافأة استثنائية كما قلت لى ، فماذا تراك فاعلا حين ينضب ذلك المعين الموقوت ... وأنا معتلة الصحة ، لا تفرغ لى حاجة الى دواء أو كساء ؟..

لقد آن لمرضعتى العجوز أن تستريح ، وآن لك أنت أيضا يا صديقى أن تستريح من هذا العناء .. وليس لكما من سبيل

الى الخلاص سوى أن التحق بالعمل فى بيت كريم ..
فلماذا تصر على استبقائى ؟ما جدواى عليك يا صاحبى العزيز ؟ ليس فى لك نفع ، فأنا لا أحسن الا التعلق بقلبك النبيل ، ولك عندى محبة لا مزيد عليها . ولكن أى طائل تحت هذا لك يا صديقى ؟
فكر فى الامر ، ولا تبطىء على بقرارك الاخير ..

المخلصة الودود
بريارة

أول يوليه

هذر وهراء ما تقولين يا فارينكا ! ما هذه الخواطر السوداء النكراء التى عششت فى راسك يا أختاه ؟

أنت جاهلة يا فارينكا بحياة الناس ، وليست لك خبرة بما فيها من متاعب ومشاق ... فأنت لا تفقهين معنى الاقامة بين قوم غرباء ، لا يعنيهم أمرك ، وانما يعنيهم منك أمر أنفسهم . أما أنا فأعرف تلك الحياة يا فارينكا ، فقد أكلت من خبز الغرباء ، فوجدته علقما وصابا ، ولم أجد فيه شبعا من جوع ، ولا راحة من تعب ، ولا رحمة من عذاب !

ما الذى ينقصك يا عزيزتى فى حياتك الراهنة حتى صرت تضيقين بها كل هذا الضيق ؟أهو ما تزعمين من ثقل عبئك على كاهل « فيدورا » ، كاهلى ، وانه لا نفع فيك لنا ؟
إأنت لا نفع فيك لنا ؟ ولولاك لما كان لنا بحياتنا انتفاع .. فأى نفع لى أنا سوى أن أكون ذا نفع لك يا يمامتى الحبيبة ؟

هذا هو السؤال الذى كان ينبغى أن تسألى نفسك اياه الا ما أقساك يا فارينكا ...أتراك تستعجلين ساعة يحملنى فيها الحاملون على ظهرى الى مقبرة فى ظاهر المدينة .. فيرمى الناس وراء نعشى بحفنة من التراب فى حفرتى الباردة ، ثم

يتركوننى فيها وحيدا ،ويعودون الى حياتهم دونى ؟ لكأنى بك بهجرانى تستعجلين لى وحشة القبر أفرد فيه ودونى جندل وصفائح ... فحياتى بدونك يا فارينكا موحشة كالقبر ، قاسية كالموت ...

فأستحلفك بكل عزيز ومقدس يا فارينكا ألا تجرعينى هذه الكأس ، وأن تحولى عن شفتى مرارتها ... فانها أقسى من احتمال قلبى الكسير ، الذى تركت فيه أثارها الايام ، وملأت صفحته بالندوب ...

ارحمى تعلقى بك يا أملى الفريد، وارحمى نفسك أيضا ياأختاه من قسوة الغرباء على قلبك الرقيق ...

فانك ان ترحمى قلبى ، يرحمك الله ويجزينك خير مايجزى أهل المروءة والاحسان .

صديقك المخلص الوداد

مقار ديوفشكين

عزيزى السيد مقار !

لقد باعت « فيدورا » الحرير الذى طرزته بيدى بخمسة عشر روبلا، أعطيتها منها ثلاثة ففرحت بها فرحا عظيما ..

وانى أكتب اليك على عجل ،لأننى أريد أن أحيك لك صدارا من نسيج جميل أصفر اللون فيه زركشة صغيرة بيضاء تمثل أفانين من الزهر ، سيعجبك كثيرا .

أرسل اليك مع هذه الرقعة كتابا فيه مجموعة من القصص، أوصيك أن تقرأ منها على الخصوص قصة المعطف للكاتب « جوجول »

ألا تزال مصرا على اصطحابى الى مسرح التمثيل ؟ أليس هذا بذخا باهظ التكاليف ؟..ان فيدورا تردد على سمعى فى الايام الاخيرة انك تنفق أكثر من دخلك ، وهذا رأيى أيضا ، فما

أكثر ما أنفقت على فى غير موجب.. فاحذر يا عزيزى أن يصيبك من ذلك البسط فى النفقة مايضيرك ..

لقد نقلت الى فيدورا ما تناهى الى سمعها من خلاف نشب بينك وبين ربة الدار ، لتأخرك فى سداد أجر سكنك.. فأقلقنى هذا الخبر ، وعسى ألا يكون صحيحا ..

وداعا يا صديقى .. وليتك ترجع عن دعوتى الى مشاهدة التمثيل ..

بربارة

ملحظ : لقد خطر لى خاطر أحببت أن أستطلع رأيك فيه : الا يكون جميلا أن ارتدى ــ اذا ذهبت معك الى مسرح التمثيل ــ قبعتى الجديدة ، وشالى الاسود ؟ أترى ذلك يزيننى ؟

٧ يوليه

عزيزتى بربارة

... أصل ما انقطع من حديثى اليك بالامس .

أجل يا أختاه ، لقد عرفت فيما مضى من أيام شبابى ما تنطوى عليه كلمة النزق أو الضلالة من معنى ، حين أغرمت بتلك الممثلة الفاتنة . وقد لا يكون هذا وحده دليلا على خبالى وسوء رأيى ... وانما الدليل على ذلك أكبر الدليل هو اننى لم أر هذه الممثلة قبل افتتانى بها الا مرة واحدة ، وهى على خشبة المسرح

وأنكى من هذا اننى أحببتها حتى قبل أن اراها تلك المرة الفذة . فقد كنت أساكن خمسة شبان من الطلاب المتهوسين ، لم تكن تفوتهم رواية من رواياتها فاذا عادوا الى البيت آخر الليل لم يتركوا لى فرصة للنوم ، لكثرة ما يتحدثون فى حماسة عن معبودتهم الحسناء . فكلهم كان عاشقا مدنفا على البعد بها ، فالحب كخلائق الناس جميعا يعدى ، فانتقل حبها الى قلبى

الخـــلى . وذهبت معهـم الى مسرحها ذات ليـلة ، فخرجت متيما لا أملك مقاد لبى .. فقدكان صوتها عذب الجرس صافيا كأنه غناء البلبل وعدت الى مثواى وكأننى أعيش فى حلم .

وتحسست جيوبى جميعا واحدا واحدا ، فلم أعثر فيها الا على روبل من فضة ، هو كل ماأملك الى أن أقبض راتبى بعـد عشرة أيام طوال . فما تظنينني قد فعلت بذلك الروبل الفرد ؟ لقد بكرت من غدى الى حانوت للعطور الباريسية ، فاشـتريت لها عطرا وصابونا معطرا ،ورحت أذرع الطريق تحت نوافذ بيت معبودتى الغافلة ..

وانى لأعجب من نفسى اليوم لماذا اشتريت ذلك العطر ، وذلك الصابون ، فلم اجترىء عـلى اهدائهما الى معشوقتى ..ولكن كل ما اعلمه انى بقيت شـــهرا ونصف شهر لا أمارس شيئا من مهام الحياة وأمورها سوى تعقبها اينما ذهبت فى عربة اكتريها ، حتى ساءت أحوالى ..

وأخيرا يا يمامتى ، وبغير مقدمات ، طار حبها عن قلبى ذات صباح ، كما حط عليه من قبل ذات مساء .. وارتفع عنى ماكان يرهقنى من سـحر الساحرة الحسناء ...

وهذا يا عزيزتى ما ترديت فيه يوما من الرعونة ، ولكن هذا عهد مضى يا أختاه ، مع ما مضى من أيام الشباب .

مقار ديوفشكين

زعازع الأنواء

٢٧ يولية :

عزيزى السيد مقار :

لم تعد براهينك تقنعنى ياصديقى ، وبت أرانى مخطئة فى رفض ما عرض على من أعمال شريفة . . ولا سيما بعد ان أصبحت تتعلل لانقطاعك عنى بأن طبيعة حبك لى تفرض عليك تلك القطيعة . . وانما هوخوفك أن أتبين الحقيقة وما صرت اليه من ضيق شديد . .

لقد زعمت لى انك تنفق على فى مرضى وحوائجى من فيض مال كنت تدخره ، فاذا أنت لم تكن ذا مال مدخر ، وانمادفعك عطفك وحنانك أن تقتر على نفسك كل التقتير فى سبيل رفاهتى ، وان ما زعمته مالا مدخراً كان مرتبك وقدتقاضيته عدة شهور سلفا ، فأنت الآن ولا مورد لك على الاطلاق . .

وقد تحققت أنك بعت كسوتك الرسمية أثناء مرضى لتدفع ثمن دوائى ، فبت خلق الثياب ، تطل أصابع قدميك من حذائك . فأزريت بنفسك ،وجوعتها فى سبيل استبقائى ونعمائى . .

ألا انك قد خنت عهد صداقتنا بهذا الخداع الفاضح . . ! ان ذكرى ما استهلكت من هداياك من الحلوى والثياب والنزهات والدواء تنوش قلبى ندماعلى ماكلفتك من ضرورات الحياة . . والمسرات التى طالما اثلجت بها صدرى قد انقلبت مدعاة للغم والاسف . .

أفهل هبطت الى هذا الدرك من الزراية بنفسك يا مقار ، وانت الرجل الفاضل الذى أجمع الكافة على توقيره . . ؟ أهكذا تجعل من نفسك هزأةالعالمين . . ؟

الا ما أهول ما جرته عليك صداقتى الرعناء . . ! وكيف

أغفر لنفسي ما سببته لك من سوء المنقلب .. ؟

الك يد بتصور ما انتابني من الالم الشديد حين قالت لي فيدورا أن الشرطة عثروا بك ثملا مطروحا في الشارع في الهزيع الاخير من الليل .. ؟

لقد أصابني الذهول لاول وهلة ، وان كنت قد توقعت أمرا خارقا ، لانك تغيبت عن بيتك أربعة ايام سويا .. ولكني لم اكن أتوقع أن يعثر بك الشرطة مخمورا وأنت رجل الفضل والنبل والاستقامة التي تضرب بها الامثال ..

ماذا عسى أن يقول رؤساؤك لو عرفوا هذا الامر .. ؟ وهلا تذكرت ما طالما كررته على سمعي من شيوع أمر صداقتنا على السنة جيرانك اجمعين ،حتى سخروا من غرام كهل في سنك بفتاة مثلي . . ؟ ماذا عساهم اذن قائلين بعد هذا الذي حدث لك .. ؟

ثم ما حكاية شجارك مع الضباط .. ؟ ولماذا تكتم عني ما يحدث لك ويحزنك من الامور .. ؟

اكتب الي يا صديقي ولا تضن على بشيء من أخبارك اذا كنت لا تزال تقدر صداقة ..

المخلصة لك على الدوام

بربارة

٢٨ يولية :

عزيزتي الغالية بربارة . . !

اما وقد عاد كل شيء الى نصابه الآن ، فلست أرى ما يمنعني من مصارحتك بما كنت أخفي عنك ..

لقد تساءلت عما يخوض فيه الناس من شأننا ، ومن شأني انا على الخصوص ، وقد رأوا تغير حالي .. فاعلمي اذن ان قالة الناس في شخصي لا تهمني ، وان رؤسائي في الديوان لا

علم لهم بشيء .. فلا يـكربني الآن الا تخـرص النـاس عن صداقتنا ، والخوض فيها بما ليس منها ..

لقد كانت ربة البيت لا تكف عن الصياح والصخب ، حتى اديت اليها جـزءا من متأخر الكراء ـ هوتلك الروبلات العشرة التى بعثت بها الى مشكورة ـ فخفت صوتها حتى صارزمجرة مكتومة لا آبه لها كثيرا ..

واما جيرانى فلايتعرضون لى بسـوء .. وليس يهمنى الا يحترمونى ، فتقديرك انت هوكل ما أحرص عليه يا عزيزتى !

ولست اكتمك أن ديونى الكثيرة تثقل على صدرى ، وان رثاثة ثيابى تخزينى .. ولـكن هذا كله ليس شيئا مذكورا ، ما دمت انت بخير ، ولعل الله يحدث لنا فرجا ..

لقد بعثت الى امس بنصف روبل .. فما أشد ما آلمنى هذا النصف روبل وحز فى قلبى .. هل صرت حقا الى هذا الموقف النكد .. ؟ هل انقلبت الآية شرمنقلب ، حتى بت أنا الذى أتلقى منك العون ، لاالذى يقدمه اليك كما ينبغى للولى الحميم .. ؟

وداعا يا يمامتى .. واتم الله عليك العافية ، وسأحدثك فى خطاب آخر عما وقع لى مع الضباط ..

مقار ديوفشكين

٢٨ يولية

اختى فارينكا

لقد أثرت كوامن أشجانى بما قلت لى أيتها الاخت عن حقى فى حبك ، وان ذلك الحب ليس من الرعونة والخبال فى شيء . وهو كلام جميل .. ولكنه محض كلام .. أما قلبك يا ڤارينـكا فما اراه يقول ما ينطق به لسانك ، وانى من هذا على يقين .

وقد كان هـذا الحب الذى أغالبه سببا فى كل ما وقع بينى وبين الضباط من مهازل لا أحب ذكرها ، لولا الحاحك فى السؤال

تعلمين يا ڤارينكا انى سلخت شهرا لا أجد ما أعيش به ،

فكنت أتسلل الي البيت تسللاواخفى وجهى عنكمتعللا بكثرة العمـل ، ولولا ان ربة البيتتربصت بى وفضحتنى لماعلمت الحقيقة ..

وما كان صياحها ليزعجنى ، لو لم تعرف المرأة السـليطة ـ ولا ادرى كيف عرفت ـ انبينى وبينك صـداقة ومودة ، فراحت تندد بنا ، وتنعتك علىملأ السكان بأقبح النعوت . . حتى استولى على الذهول لمـاسـمعت ، ورحت أصـم أذنى بأصابعى فزعا واستنكارا . . ولكن سائر السكان لم يصموا آذانهم بأيديهم كما فعلت . . بل فتحوها وأرهفـوها ارهافا شديدا لتلقى تلك الاراجيف . حـتى بت لا أدرى أين اخـفى وجهى عن هـؤلاء الناس الذين صدقوا ، لسوءدخيلتهم ، ماقيل لهم ..

وزاد الطين بلة اننى سمعتبعد ذلك من « فيـدورا » ان شخصا لا خلاقله زار حجرتكوأساء الى كرامتك وحيائك بما سولت له نفسه أن يطلبه اليكويساومك فيه .. وانى لمدرك يا عـزيزتى مـدى ما ألمت لهبسبب تلك الاهانة التى مست سويداءك . . فكان ذلك النبأهو القشة التى قصمت ظهـر البعير . . فتداعت مقـاومتىتحت عبء الاحـزان ، فان كل شيء كان هينا عنـدى ، الا أنيمسك سوء من قريب أو بعيد

وكأنما اصطلحت الطبيعة مع الناس على توهين عزيمتى .. فأمطرت السـماء وانتشرت الوحول فى كل موضع ، ونفذ الماء من ثوبى الخلق وحذائى البالى . .

وفيما كنت متجها الى البيت فى تثاقل وانقباض ، قابلنى « اميل » الموظف السابق فى ديواننا ، فمشينا نتناقل أخبـار متاعبنا برهة ، فهو رجلمسكينلا مورد له بعد فصله منالخدمة

وفى شقائه صدى لشقائى العظيم فى ذلك اليوم ..

وانتهى بنا المطاف الى حانة وماخور ..

ولكن أى ارب لك فى الاطلاع على صـــورة مفصـــلة للاوزار والحمآت التى تمرغ فيها صديقك المســكين فى ساعة ضيق وضعف ..

لقد دامت هذه الخطيئة ثلاثة أيام سويا ، دفعنى أميل فى نهايتها ــ وكنا نتذاكر همومنابين كؤوس الخمر ــ الى الانتقام مما لحق بى من اهانتك والاساءة اليك والى شرفك . فاندفعت تحت سورة الخمــار الى بيت ذلك الضابط السفيه ..

ولست أذكر الآن شيئا مما حدث على وجه التفصـــيل ، ولكنى أذكر فقط ان البيت كان غاصا بالنـــاس ، ومعظمهم من الضـــباط ، واننى اندفعت فى الكلام طويلا ، الى أن القـــوا بى من أعلى الدرج ، فتدحرجت ، حتى بلغت أرض الشـــارع .. وعلى هذه الحال عثر بى الشرطة

ولكنى لم أكترث لهذا الذى وقع لى ، لان شيئا فى الحيـــاة لا يهمنى بعد راحتك وسلامتك من السوء ، ومن ألسنة السوء

فاذا كنت قد أثمت ياصاحبتى ، فبسببك ، وبسبب حبى لك وتعلقى بشخصك الحبيب ، وحرصى على كمال احترامك ، وصيانة كرامتك بسياج متين .

وليك الحميم

مقار ديوفشكين

٢٩ يولية :

سيدى العزيز :

قرات خطابيك اللذين كتبتهما الى امس .. فاستولت على دهشة شديدة : فاما أن تـــكون قد كتمتنى جانبا كبـــيرا من

الحقيقة ، واما أن يكون اضطرابك النفسى أعنف كثيرا مما قدرت ..

فأتوسل اليك انتحضر لزيارتى اليوم .. تعال لنتغدى معا فى غير تكلف ، فان لى معك حديثا طويلا ، ولاسيما عن نمط حياتك وعلاقتك بربة البيت ، وهى أمور لاتخوض فيها فيما تكتب الىّ من الرسائل .. كأنماتريد أن تتجنب ذكرها عمدا .

وداعا يا صديقى ، واعلم انهلابد من حضورك على كل حال ولعل الاوفق أن تتغدى معنا كل يوم ، ففيدورا طاهية ماهرة .

بربارة

أول أغسطس :

أختى بربارة العزيزة .. !

أراك سعيدة بما هيأته لك الفرصة السانحة من اظهار ما تنطوى عليه جوانحك من عرفان الجميل والعطف الكريم ؛ ولكن لا ادرى لماذا تلحين فى نبش هفواتى التى انحدرت اليها فى الماضى .. ؟

لقد هفوت وأثمت ، بيد انى أتألم كثيرا حينما أسمع ذلك من بين شفتيك انت من دون الناس جميعا .. وأرجو الا تغضبى لهذا الذى أقول لك ، فان قلبى يتمزق ألما ، والفقراء يا يمامتى قوم فيهم حساسية شديدة لمايمس كبرياءهم المرهفة .. وفيهم حذر وسوء ظن بالدنياوبالناس . فالرجل منهم يصيخ السمع كلما رأى قوما يتهامسون ، خشية أن يكون موضوع همسهم وتغامزهم . واذا جادعليه الناس بشىء من المال ، أجازوا لانفسهم أن يتطفلوا على حياته الخاصة ، فليس مايعطونه صدقة خالصة فى الواقع ، وانما هو اجر « الفرجة » على رجل فقير من عباد الله المساكين ..

فهل تعجبين بعد هذا ياأختاه لما يداخل الفقير منا من

التوجس والارتياب وسوء الظن بالناس ؟ فهو يحس كما لو كان أولئــك المتخمون يهمون بتعرية جسده من كل ما يستره . . فهل يلام على تمسكه بالحياء ، وبستر ما أمر الله ان يستر ؟ ؟

الا ان خلات الناس وآلامهم عورات لا يحل لاحــد ان يطلع عليها .. وقد ظهرت ســوأتي اليوم للنـــاس ، فكدت اموت خجلا .. لقد تبينت أن كوعي كان يطل من كم سترتي البالى وانا جالس الى مكتبى فى الديوان .. وان أزرارها كانت تتراقص مدلاة من خيوطها الواهية التى لا تكاد تمسكها ..

فلمـا عدت من الديوان ، وقصدت الى بيتك للغداء ، رأيت جميع سكان بيتنا فى النــافذة ، يشـــيرون الى بأصابعهــم هازئين ، وسمعت صاحبة البيت تنعتك بأعلى صوتها نعتــا بذيئا .. ووصمتنى بالشيطان الذى يغرى فتاة ويدنس شرفها فى ســبيل متاع شيخوخته الفانية .. فجعلت الدنيا تدور من حولى ، كأنما اعانى سكرات الحمى ، وقد أعيتنى الحيــلة للخلاص من هذا المأزق ..

رباه .. ! أين أين المفر ؟ !

لقد ضقت ذرعا بكل شيء ، وكفرت بكل شيء ، ولست ارى لى مخرجا من هذا البلاء الشديد ..

مقار ديوفشكين

٢ اغسطس :

عزيزى السيد مقار ..

لا يحزينك الامر ياصاحبى ، فما عقدة الا ولها فرجة مثل حل العقـــال . . وقد وفقــت فيدورا الى كمية من الاعمـــال لى ولها ، سيأتينا منها اجــر حسن ، عسى أن يقضى على كل أثر لضائقتنا الخانقة ..

لا تلق بالا الى تخرصات ربة الدار ، وتعال لزيارتنا وتناول

الطعام معنا ، فهو أجدى عليك وأقصد لنفقتك ، والقصد أولى من القرض .. لان القرض تأجيل بلاء وليس حسم داء ..

وأوصيك الا تسترسل فى سوء الظن وتوهم المكائد والشماتة ، فان ذلك الوهم خليق أن يزيد نفسك اضطرابا ، من حيث تنشد الامن والسكينة ..

انى أنتظر حضورك اليوم ، فلا تتخلف ..

بربارة

٣ اغسطس :

ملاكى الرقيق بربارة .. !

أبادر بأن أزف اليك يا نور حياتى بشرى بارقة من الامل ، تراءت لى ، وان كنت قد نصحتنى فى خطابك أمس الا الجأ الى القروض ، لانها فى رايك ياملاكى دائرة خبيثة مفرغة لاتحل المعضلات ، وانما هى تؤجلها لتزيدها تعقيدا واستعصاء .

ان لى زميلا فى الديوان ، يجاور مكتبه مكتبى ، اسمه «اميليان ايفانوفتش » وهو مثلى من أقدم موظفى الديوان ، ولكنى كما تعلمين رجل منطو على نفسى ، فلم تزد العلائق بيننا على تبادل التحية والسلام ، وقد اقول له فى الحين بعد الحين ..

– اعطنى مبراتك يا عزيزى متفضلا مشكورا ..

فلديه مبراة من الصلب ليس كمثلها مبراة .. ولكن الصلة بيننا فى ثلاثين سنة لم تزد يوما على هذه المجاملات الرسمية ، وان كنت أشعر فى قرارة نفسى انه يضمر لى الخير . وبالامس قرأ فى وجهى علائم الهم والكدر فسألنى مابى ، فقلت له أسباب ضيقى ، اجمالا لاتفصيلا بطبيعة الحال . لان الشجاعة لم تواتنى على مصارحته بكل متاعبى الباهظة ، فقال لى اميليان :

– لماذا اذن لا تعقد قرضا تصلح به شأنك .. ؟ ان «بيير

بتروفتش » يقرضنى بفـائدة معقولة فالجأ اليه ، فهو رجل طيب ..

فقلت فى نفسى : لعل هذا بشير الخلاص من ضيقى الراهن فأسدد دينى لربة البيت ، وأقـدم لك شـيئا من المعونة ، وأجدد ما خلق من ثيـابى .. فقد صار ملبسى مدعاة للخزى المقيم .. فاذا غضضت الطرف عن نكات الرقعـاء من الموظفين ولواذع تعريضاتهم وغمزهم ، فما يسعنى ان أغض الطـرف عن مدير الديوان .. فقد يمر سـعادته بمكتبى ويرى سـوء مظهرى الذى لا يليـق بكرامة مركزى فى الـدولة ، والكرامة ولياقة السمت أهم شىء فى منظر مثل هؤلاء الرؤساء العظام .. ولا أحسبه سيقول شيئا ، ولكننى خليق أن أموت خجلا تحت وقع نظراته الناطقة بالاشمئزاز والاستياء ..

وكان هذا الخاطر وحده كافيـا للقضـاء على كل تردد ، فجمعت شجاعتى فى يدى ، وتوجـهت الى مـكتب « بيير بتروفتش » فوجـدته مشغولا بالحديث مع شـخص آخر ، فاقتربت منه ووقفت الى جواره من الجانب الآخر ، وجذبت طرف كمـه فى لطف ، فالتفت نحوى ، فقلت له همسـا اننى بحاجة الى ثلاثين روبلا ، ويبدو انه لم يفهم مرادى لاول وهلة فشرحت له الامـر ، فأنشـأ يضحك ، ولم يجبنى بشىء .. فلما رأيت سكوته وصمته بعد أن ضحك ماشاء الله ان يضحك أعدت عليه الطلب ، فقال لى :

ــ الديك رهن عينى ؟

ثم « غاص » فى أوراقه وكتاباته دون ان ينتظر منى جوابا على سؤاله ، غير ملق الى نظره ، فاضطربت وتضاءلت بعض الاضطراب وبعض التضـاؤل ، وقلت بصوت مختلج :

ــ كلا يا بيير بتروفتش ، ليس عندى رهن ..

ثم أخذت أؤكد له اننى سأفى بدينى متى قبضـت مرتبى ،

مقسما له على ذلك بأغلظ الايمان ..

وناداه مناد فى هذه اللحظة فخرج ، وانتظرت حتى عاد الى مكتبه ، فجلس وانصرف الى برى قلمه بعناية وكأنه لا يحس لى وجودا ، فأعدت الكرة عليه فى توسل ، فتصامم عن كلامى ، وكأنى لم أقل شيئا ، فبقيت واقفا بين يديه لحظة لا أدرى ماذا أصنع ، ثم عولت على اعادة المحاولة على يأس من الفلاح ، فجذبت كمه مرة اخرى ، فلم يلتفت الى ، وانصرف الى الكتابة بعد ان نفخ آثار برى القلم عن أصابعه وثيابه ، فانصرفت ، وما كان لى الا ان أنصرف بعد هذا الذى جرى بيننا فى غير طائل

أرأيت يا أختاه ؟ أولاء هم الغرباء ، قوم كرام على أنفسهم ، ونحن عليهم غير كرام .. فلا يدرى الفقير منا كيف يخاطبهم أو يشعرهم بحاله أو يعطفهم عليه .. فنحن أهون عندهم من أن نحرك فيهم ساكنا أو نشغل لهم بالا ..

ولما عدت الى مكتبى وقصصت ما حدث على « اميليان » ضحك كثيرا ، وهز رأسه وسكت .. ثم راح يسرى عنى ويفتح أمامى أبواب الامل ، فهو مثلى رجل فقير ، ووعد بتزكيتى عند صديق له يسكن حى « فيبورج » يقرض النا.. بربا معقول ، وسأذهب اليه من غدى .. فما رأيك يا أختاه .. ؟ ألست على حق .. ؟ وهل من هذا السبيل بد او عنه مندوحة؟

فهذه ربة البيت تتوعدنى بالطرد اذا لم أؤد لها حقها المتأخر وأجرها المطول ، وهى تأبى منذ اليوم أن تقدم لى طعام العشاء نسيئة كما كانت تفعل من قبل واما نعلاى يا أختاه فحالهما شر حال . واما سترتى فقد كثرت فيها الخروق ، وطاح البلى بنصف أزرارها المعدنية الصفراء .. حتى ما أدرى كيف أواجه

نظـرات رؤسائى لو رأوا كيف بت أبدو . . انها لتكونن اذن كارثة ليس عنها من محيص .

مقار ديوفشكين

٤ أغسطس :

عزيزى مقار

أستحلفك بحق الله عندك يامقار ان تدبر قدرا من المـال على وجه الاستعجال ، كائنا ماكانت الوسيلة ..

وما كنت لاطلب اليك هـذا الطلب ، أو استأديك العـون وأنت فى هذه الظروف التى أعلمها علم اليقين ، لولا أننى ألفى نفسى فى موقف لا يطاق معـه الصبر ولا تنفع فيه الحيلة .. فلا أرانى قادرة بعـد الآن على التلبث فى هذا البيت الذى أسكنه بحال من الاحوال ..

تصور يا صديقى اننى حظيت اليوم بزيارة من رجل غريب لا أعرفه ، متقدم فى السن حتى ليكاد يحسب فى عداد الشيوخ ترصع صدره نياشين ذات عدد وبريق فأدهشتنى هذه الزيارة التى لم أعرف لهـا سببا . وكانت فيدورا فى السوق تشترى حاجاتنا ، فأنشأ الزائر المجهول يسألنى عن أحـوال معاشى وشواغل حياتى ، ثم انتقل ــ قبل أن أجيبه على أسئلته ــ الى مكاشفتى بحقيقة شخصيته فاذا هو عم ذلك الضابط الذى زارنى يوما لـيراودنى عن شرفى وانحى على ابن أخيه الشـاب باللائمة الشـديدة ، واسـتنكر تشهيره بى فى الحى كله بما أثاره من فضيحة بسلوكه الشائن ، الذى أملاه عليه طيش الشباب ثم عرض على حمايته ، زاعمـا أنه يشعر نحوى بعطف أبوى وحنان والـدى صادق يدفعانه الى رعايتى ومسـاعدتى . .

فتخضب وجهى بحمرة الحياء ، وحرت فى تأويل ما يقول ، فلم

أعبر له عن شكرى ، فجذب يدى عنوة ، ثم داعب بأنامله العجاف ذقنى ، وهو يطرى سحر عينى ونضرة حسنى ! ! ثم صاح منتشيا حينما اكتشف أن لى فى وجنتى « غمازتين » وهم أن يقبلنى قهرا ، قبلة يزعمها من فيض الابوة العطوف

ودخلت فيدورا فى هذه اللحظة ، فاضطرب وتراجع ، وجعل يكرر فى تلعثم ظاهر انه يقدر وداعتى واستقامتى .. وانه يرجو ان أطمئن اليه وأثق به .. ثم انتحى بفيدورا جانبا وحاول أن يدس فى يدها شيئا من المال متعللا بتعلات عرجاء ، ولكن فيدورا أبت بطبيعة الحال أن تقبل منه شيئا ، فانصرف على وعد بتكرار الزيارة ، حاملا الى قرطا من الذهب أزين به أذنى الجميلتين ..

ولم ينس ان يوصينى قبل انصرافه بتغيير مسكنى ، فأنتقل الى مسكن آخر خير من هذا ولا يكلفنى أجرا .. ثم قال انه يعرف « آنا فيودروفنا » وأنها ستأتى لزيارتى عما قريب ..

فما أن سمعت منه هذه العبارة الاخيرة ، حتى تكشفت لى الحقيقة بحذافيرها ، وادركت أن هذه القوادة قد عادت الى القاء شباكها حولى ، ولا حول لى .. فانفجر غيظى المكتوم ، وجعلت أنتفض وأسب الرجل وأصرخ طالبة اليه الخروج من بيتى ، فجرته فيدورا الى الباب جرا ..

ان هذه المرأة قد دبرت لنا هذا الشرك ، وما كان الرجل ليعرف طريقنا لولاها .. فلا تتخل عنى الآن ياصديقى بحق السماء واخرجنى من هذا المأزق .. اقترض .. اقترض مالا بأى شكل من الاشكال .. حتى ننتقل من هذا البيت الى موضع لا تعرف فيه « آنا فيودروفنا » مكانى . ولا يكفى لهذه النقلة أقل من خمسة وعشرين روبلا .. أتوسل اليك الا تحجم عن

شيء فى سبيل الحصول عليها . . فلا تهولنك فائدة الربا ولو كانت أضعافا مضاعفة ، اقدم على أى شيء ، واقبل كل شرط يفرض عليك . . ولكن لا تتخل عنى ولا تخذلنى يا صديقى الوحيد واملى الفريد . . »

بربارة

أين المفر ؟

٤ أغسطس

يمامتي وعزيزتي العزيزة !

انی أترنح تحت هذه الضربات المباغتةالتی أحس بها تتواكب فوق رأسی ، فتسحق مقاومتی وتشل وجدانی وتمحق روحي.

ماأشقانی بالحياة بين هؤلاء الناس الذين تموج بهم المدينة الكبيرة ، متسكعين ، متطفلين ، شامتين ، لايفهمون الالم ، ولا يعرفون الرحمة. انهم ليدفعوننی الی اليأس . كلا . بل الی ماهو شر من اليأس : الی الجنون أوالانتحار ، أو الكفر والاستهتار.

ماأشقانی بما كتبت الی ، فانی لافضل الموت فی أبشع صوره علی القصور عن معونتك ، وقد طلبت هذه المعونة فی ألم يفتت الاكباد ..

بل انی أشقی شقی ، حتی اذا وسعت طاقتی اسعافك بما تريدين من العون : فلو لبيت طلبك ، لكان فی ذلك بعدك عنی ، كما يحلق العصفور بجناحيه فی الفضاء فلاتصل اليه يد ولايقربه منك الا أن يعود اليك ، وأنت تريدين ذهابا لارجعة فيه ..

ولكن ماحيلة العصفور وقد اجتمعت علی عشه البواشق والصقور ، تريد أن تهلكه وهو راقد فيه .

وتلك ياحياتی هی شقوتی المزدوجة وحيرتی الرائنة.. فلماذا تلقين بی فی هذه المحنة ؟ ولماذا تشقيننی وتشقين نفسك ، فانك لن تجدی فی البعد عنی الاالوحشة ، وانت كالاطفال لاغناء لك عن راع يسهر علی صحتك الرقيقة والا اضررت بها بمافی طبعك من تهور وقلة اكتراث .وماأحسبك الا تنوين الانكباب فی حياتك علی الحياكة والتطريز ، حتی تنوئی بذلك العمل الشاق .

فارينكا ! فارينكا ! أعدك أن أكون لك خير راع ومعين ، ولكن لاتتركی جواری ياأختاه ! ودعی التفكير فی العمل ، فسأقوم أنا

بكل مايلزم لمعاشك : سأعمل في نسخ المؤلفات ليلا ٠سأطرق أبواب المؤلفين وأحملهم على تكليفي بنسخ كتاباتهم حملا ،لانهم بحاجة الى نساخين من ذوى الخط الحسن٠ أنا من هذا على يقين فلا يداخلك في ذلك شك ٠

وثقي أيضا انني سأقترض من المال مايكفيك الى أن أجد هـذا العمل الاضافي السخي، أتقولين في خطابك انني لا ينبغي أن أتراجع أمام فداحة الربا ؟ ثقي انني لن أتراجع أمام شيء مهمـا كان في سبيل تدبير المـــال ، ولـكن أستحلفك ألا تفارقيني والا مت كمدا ، فما حياتي بغير جوارك؟ أنت لى كالشمس للنبات والمـاء للحوت ٠ ٠٠

سأطلب أربعين روبلا قرضـا أصلح به شأنك وشأني ، وهو ليس بالمبلغ الكبير ٠ أترينـــه كثيرا ؟ أتظنين الحصول عليـــه يسيرا ؟ أترينني – في نظرك – أوحي بالثقـــة ، بحيث يطمئن المرابي الى كلمتي ، فكلمتي هي الضمان الوحيد الذى أملك تقديمه لقاء هذه الروبلات الاربعين ٠٠ أعني هل يدل منظري وشـكلي العام على انني أهل للثقة ؟ حاولي ياملاكي أن تتذكري أول لقاء لنا وخبريني هل تدل النظرة الاولى الى على رجل يبشر بالخير ويستأهل الاحترام والتقدير ٠ ولا تكتمني رأيك الحق ، فاني أرتعد فرقا من الفشل في هذا المشروع ٠٠ حتى بات الوسواس لا يفـــارقني في غدوي ورواحي ٠

وقد اعتزمت أن أخصص من هذه الروبلات الاربعين خمســة وعشرين روبلا لما يلزمك يافارينكا، واعطى خمسة أخرى لربة بيتي حتى أكف أذاها ، وأدبر شأني المضطرب بما يتبقى منها ٠

والحق انه كان ينبغي أن أدفع الى ربة البيت أكثر من هـــذا المبلغ، لولا كثرة مايلزمني لزوما عاجلا ملحا ، فلابد لى من حذاء

جديد يكلفنى روبلين على الاقل، فلست واثقا ان حذائى الحالى قادر على الصمود الى الغد! فالله وحده يعلم كيف سيتسنى لى الوصول غدا الى الديوان بهذا الحذاء المتداعى .. أما رباط العنق العتيق القذر فلا أظننى بحاجة الى شراء بديل عنه ، مادمت قد وعدتنى بعمل رباط لى من بعض أثوابك القديمة . ولكن لاغنى لى عن شراء أزرار معدنية جديدة، بعد أن ضاع أكثر من نصف أزرار كسائى . . وانى لارتعد فرقا لمجرد التفكير فى احتمال وقوع نظر سعادة المدير العام على شخصى وقد أصبح بهذا القدر من الزراية والابتذال! ماذا عساه أن يقول عنى وأنا الرجل القديم العهد بالخدمة ، المشهور بالرزانة والاحتشام ؟ .. لن يقدر لى أن أسمع تعليقاته ، لاننى سأكون قدمت خزيا لمجرد نظره الى .

ويبقى يا ملاكى بعد هذا ثلاثة روبلات، أعيش بها سائر الشهر، واشترى نصف رطل من الطباق ، فأنا ياحياتى لاأستطيع الحياة بدون تدخين .. وها قد انقضت تسعة أيام لم أرفع فيها غليونى الى فمى ..

انى ضعيف أمام عادة التدخين، وكان بوسعى أن أفكر فى شراء الطباق دون علمك ، ولكنى كنت خليقا أن آلم لهذا الخداع . . أما يكفينى أن تكونى فى ضيق وعوز ، وأسرف أنا فى ارضاء ملذاتى التافهة .. حتى أضيف الى هذا الضعف وصمة الاختلاس ؟ . . لهذا ياحياتى حرصت على مصارحتك والاعتراف بين يديك بذلتى حتى لاينغص على تأنيب الضمير يقظتى ومنامى .

أواه ! انى لاجد نفسى الآن فى موقف لم أقف مثله من قبل ، فى كل مامر بى من ظروف الحياة وشدائدها . . فزبة البيت تلاحقنى بازدرائها ، ولم يبق لى احترام فى نظر انسان . . . وصارت الضائقات والازمات والديون تنوشنى من كل جانب فى هذا البيت الملعون ..

أما في الديوان فالامر أدهى وأمر . فما تعودت من زملائي ولا سيما الشبان منهم كل عطف وتقدير ومودة ، قبل أن أصل الى درك بؤسى الراهن .. فغير غريب أن يتفاقم الامر الآن . لذلك صرت حريصا على أن أتسلل الى مكتبى تسلل اللص ، حتى لاتقع على هيئتي عين ما استطعت الى ذلك سبيلا ..

فياويلتي لو رفض المرابي اقراضي هذه الروبلات الاربعين! لاطاقة لي بالتفكير في هذه الكارثة ، ولهذا أوثر ألا أشغل ذهني بها .. فلو وقع هذا الحادث الجلل ، لطواني الردى قبل أن أجسر على العودة الى ماينتظرني في البيت من عذاب ونكاية ، والى ماينتظرني في عينيك من نظرات الالم والعتاب .

لقد أطلت عليك .. وانني ينبغي أن أحلق لحيتي ، فذلك أليق وأدعى للثقة والاحترام ..

رعاك الله ، ووفقني ، والسلام

مقار ديوفشكين

٥ أغسطس

عزيزى العزيز مقار ..

ليتك لاتمتحن نفسك بكل هذا العذاب الذي تلوكه وتجتره مرة بعد مرة ، فلأنت أشد على تقتـك من أحداث زمانك الشداد ..

هذه ثلاثون كوبكا أبعث اليك بها ، هي كل ما استطعت تدبيرها لتصلح بها شأنك الى غد . أما نحن ياصاحبي فلم يبق لدينا شيء ، وما أدرى ماذا نحن صانعتان غدا ، فليت غدا لاتشرق شمسه أيها الصديق !

الموقف دقيق نكد ، ولكن أي جدوى في اجترار الهموم ؟ لقد حاولت فأخفقت ، فماذا كان في وسعك بعد هذا ؟

ان فيدورا تؤكد لي أن الامر ليس كما تتصور من السوء

والضنك ، وهى تزعم أن بقاءنا حيث نحن أمر ممكن ، بل هى تذهب فى زعمها الى التهرين من جدوى النقلة الى بيت آخر ،فان مثل « آنافيودروفنا » قيمنة أن تتعقبنا وتعرف مثوانا الجديد، فهى واسعة الحيلة قوية المراس ولكنى مازلت أرى بقائى فى هذا البيت غير لائق ولا مستساغ ،ولولم أكن مكتئبة النفس لكتبت اليك عن هذا الامر فى شىء من الاسهاب •

ان لك يامقار لخلقا عجيبا حقا ! فما أشد اكتراثك لهموم الناس ، واهتمامك لآلامهم ••وتلك خلة توردك موارد الشقاء، وتجعلك على الدوام فى عذاب مقيم ••

انى أعيد الآن تلاوة خطاباتك جميعا ، فما أشد مايروعنى ماتبديه من العناية بشأنى والاهتمام لهمومى • • • حتى لتنسى أمر نفسك وخاص شأنك، فساءت حالك وبت فى موقف لامخرج لك منه الا بعناية من السماء تلحظك بها على غير انتظار ••

ولاشك عندى انه مامن انسان لايرى فيك طيبة القلب مصورة ماثلة • ولكنى أراك مفرطا فى الطيبة ، مسرفا فى النبل والاريحية • • فبعض هذا ياصديقى العزيز •

هذا نصح صديقة تخلص لك الود وتريد بك الخير • • وانى لك شاكرة ، ولاياديك عارفة ،وبفضلك مقرة معترفة •• بل ان احساسى بأفضالك يسبب لى حيرة شديدة، فلست أدرى كيف أجزيك احسانا باحسان ،وليست لى بذلك الجزاء يدان • •

فانظر أى ألم يحز فى قلبى وأنا أعلم الى أى مدى بلغت بك الآلام والمتاعب والازمات،وأننى أنا سبب هذا البلاء عن غير قصد • • ، فقد كنت ذا يسر ورفاهية ، فصرت بسببى الى الفاقة والدين الثقيل • وكنت ذا سمت وزينة ، فصرت بسببى الى المهانة وسقوط الهيبة ••

لقد عنيت نفسك بأمري، فلم يكن لك هم الا أفـــراحي وأتراحي واوجاعي وشجن ما غـــبر من عمري وما حضر . فلو عنى كل انسان نفسه بشأن الغرباء عنه كما عنيت نفسك بشأني، لكان خليقا أن يجر على نفسه كلاكل البلاء من حيث لا يحتسب ..

رباه ! كم خشيت عليـك أن يصيبك مكروه حين عرجت على بيتي بعد خروجك من الديوان. لقد كنت شديد الشـــحوب ظاهر الجزع ، تكاد تتهالك من فرط الاعياء ... اشـفاقا على انا من الصدمة القاسية ، لانك لم توفق فيما حاولت من القرض فلما قلت لك انني غير آبهة ، وأخذت اضحك امعانا في اظهار استهانتي بالخطب ، سرى عنك من فورك .

فأتوسل اليك يا عزيزي ألا تروع نفسك من أجلي ، وثق أن كل شدة الى زوال ، وكل ضيق الى فرج ... فانه يستخيل على أي امرىء ان يعيش كما تعيش انت ، موزع النفس ، مقســم الفؤاد ، معنى بما يصيب سواك كان المصاب مصابك واشد وقعا

فثب الى الهدوء يا صديقي ، ولا تكترث لشاني الى هذا الحد الاليم

بربارة

٥ أغسطس :

يمامتي الصغيرة فارينكا !

الحمد لله انك قد تلقيت فشلي في الحصول على المال بهــذا التهوين ، فقد خشيت ان يقـع عليك النبا موقعا سيئا ..واحمد الله كذلك لانك قـد عدلت عن هجر جواري الى مكان لا أراك منه حين امسي واصبح .

وقد شرح قلبي واثلج صدري ما جاء في رسالتك من تقـدير جميل وفهم صائب لحقيقــة مشاعري نحوك ... وما لمسته في سطورك من اهتمام بسعادتي وراحة قلبي ، ونصــحك لي بالثبات والجلد . ولكن خبريني يا يمامتي من أين يأتيني الجلد

وتعلي مخروق ينفذ منه المـــــاء والوحل كلما خطوت في طريقي خطوة . وكيف استطيع الذهاب غدا الى الديوان بهذا النعـــل المنكود ؟ هذا ما يحيرني ويقض مضجعي ، وما احسبه حريا ان يضنى اى نسان كريم ويمحقه محقا .

ولكن هذا على فداحتـه كان قمينا ان يهون عنـدى لو انه كان يعنيني وحدى ، فانا رجل متواضع ساذج ، لا يضيرني أن اخرج بغير معطف ، وبغير قبعة ، وبغير حذاء في هذا البرد القارس فأنا أهل لاحتمـال كل شيء ، ولكن ماذا عسى ان يقول الناس؟ وماذا عسى أن تتخرص به ألسنة السوء ؟ فما الزينة واللبـاس الحسن الا تقية اتقى بها الناس ، فمن أجل رضاهم أتجمـل ما استطعت ، ولو تركت لشأني ما تجملت ... ولهـذا اراني بحاجة الى حذاء جديد بأى شكل من الاشكال ، انقـاذا لشرفي وسمعتي من البوار .

ان الوقت لم يتسع لى أثناء زيارتك كى أفصل لك ماوقع لى اليوم تفصيلا كافيا .. فالله وحده يعلم كم قاسيت من الآلام وتحملت من الاوجاع النفسية في غضون ساعات هذا الصباح المشئوم . ولا أراني مغاليا اذا قلت انني لم أعان — وأنا الشقى المرزأ — مثل هذا البلاء في مدى عام كامل فيما مر بى من عمرى الحافل بالاحزان .

لقد صـحوت وغادرت البيت في ساعة مبكرة جدا ، حرصا على الفراغ من زيارة المرابى قبـل موعد الديوان . وكان المطر ينهمر ساعتئذ ، والأوحال تغطى وجه الطريق ، فالتففت في معـطفي البالى ، ورحت أحث الخطى وأنا أقول ضارعا الى الله :

— رب اغفر لي خطيئاتي واكتب لي التوفيق في هذا الطريق !

فلما مررت أمام البيعة رسمت على وجهي عـلامة الصليب ، واستغفرت الله ذنوبي من قلب خالص ، واستأنفت سبيلي ، منطويا على نفسي ، غارقا في أفكارى ، لا أكاد أنظر الى مواقع قدمي .

وكانت الشــوارع خالية من الناس فى هــذه الساعة ، ومن لقيته منهم كان يبدو عليه الهم والكرب. ولاغرو ! فمن ذا الذى يسير راجلا تحت المطــــر وبين الاوحال فى ذلك الوقت الباكر من الصباح ، الا أن يكون شقيا منكودا ؟!

وعبرت بى فى الطريق جماعة من العمال عليهم ثيـاب ملطخة بالزيوت والشحم والاوســاخ ، وليست أكفهم بأنظف مما عليهم من الثيـاب ، فحتك بى أولئك المناكيد حتى أوشكت أن أقع .
وكأنما كنت أنتظر هذه الصدمة الخبيثة كى أفارق ماأخـــذت به به نفسى من الجلد والهدوء ، فاذا القلق ينتابنى ، واذا أنا أخشى مجرد التفكير فى ذلك المبلغ الذى كنت فى طريقى الى اقتراضه من ذلك المرابى ..

وحين بلغت « قنطرة القيامة » انفصل عن حذائى أحد نعليه ، وما أدرى كيف استأنفت سيرى بعد ذلك على هذا الحال الغريب ..

وما سرت خطوات معدودات حتى لقينى أحـــد الموظفين فى الديوان ، فجعـــل يصعد فى نظراته ، ويتأمل هيئتى الغريبة ، ثم هز رأسه أسى كأنه يقول :

ـ أفى هذه الساعة ينكب الناس على الشراب ؟

ثم انتابنى تعب شديد ، فتمهلت قليلا حتى اســتردت شيئا من قواى المنهوكة ، ثم واصلت المسير وأنا أتلفت حولى لعلنى أجـــد شيئا أشــغل به خاطرى ، حتى لاتخوننى شجاعتنى فأعـــود أدراجى .. ولكن عبثا ، فلم أجد لذهنى مشغلة غير حالى .

وكانت ثيابى قد اكتست بالاوحال ، حتى تناثر منها على صدرى ووجهى رشاش ، فلحقنى من ذلك خجل شديد ، بدد مقاومتى وأوهى جلدى ..

ثم لمحت على البعد بيتا من الخـشب أصفر اللون ، فقلت أمنى النفس وأهون عليها مشقة المسير :

ـ هذا هوأخيرا بيتماركوفالمرابى ٠٠ لم يبق عليـــه الا القليل ٠٠

وكنت واثقا من البيت ، بيدانى أحببت أن أستوثق ،فسألت البواب ، وكان رجـــلا جلفا ،فأجابنى فى جفـــوة وفظاظة واقتضاب :

ـ أجل٠ هذا بيت ماركوف٠

فلم آبه لغلظته ، وان كانتقد تركت فى نفسى أثرا سيئا٠ وقد جربت فيما مضى من عمرىأن من استبشر خـيرا أفلح فى مسعاه ، ومن انقبضت نفســهلم يلق الا مايحزنه ويسوؤه ٠٠ وقد أوقع ذلك البواب فىنفسى كآبة ، فبدا عـلى التردد ، وقر فى ذهنى ان الرجل رافضطلبىلامحالة ، وقفزت الى خاطرى كل عوامـل التثبيط ، فتذكرت أنالرجل لايعرفنى ، فهو اذنحرى ألا يثقبى ٠٠ ولاسيما أنمظهرىلايشجع على الاحترام ٠٠

وكاد التشاؤم يثنينى عن الدخول ، لولا اننى قلت لنفسى :

ـ دعالمقاديرتجرى فى أعنتها، وليكن مايكون ، وعلىأن أسعى وليس على ادراك النجاح ٠ ٠ ٠ولئن حاولت وأخفقت فقـــد أعذرت ٠

وهممت أن أدفع البوابة الصـغيرة فى سكون وهدوء ، ولكن كارثة جديدة أفسدت على هــذاالعزم : فقد انبرى لى كلبصغير خبيث ، فجعل ينبح بكل قوتهنباحا متواليا ٠ ٠

ولاتحسبى مثل هذا الامرالصـغير تافه الاثر ، فما أوهنهذه التوافه لعزمات الحائرينأمثالى!٠

وتوكلت على الله مستعيذا بهودخلت ، فاذا كارثة أخـــرى تنتظرنى وراء الباب : فقد كانالمدخل مظلما ، فلم أتبين موضع قدمى ، وكانتوراء الباب امرأةعجوز تصب اللبن منقعب كبير

Scanned with CamScanner

فى آنية صغيرة ، فاصطدمت بها بغتة ، فطـــاح القعب من يدها وتدفق اللبن منه عــلى الارض ، فجعلت تعوى وتتفجع وتصيــح
ـ هل أنت أعمى أيها الشيخ؟ ألا ترى ماصنعت ؟ ماذا تـريد هنا ؟

ثم تدفقت الشــتائم من فمهــا مختلطة بالتأوهات والزفرات ..

وانى أقص عليك هذه التفصيلات عمدا ، لان أشباههــا تحدث لى على الدوام فى كل أمر أحاول قضاءه ، لسوء طالعى ... فما من مرة من هذه المرات الا أوقعني نحسى فى أحـــد أو فى شيء ما كان ينبغى لى أن أقع فيه .

وجاءت على الضجة امرأة عجوز قبيحة الخلقة ، فبادرت اليهــا سائلا :

ـ أهنا يقيم السيد ماركوف

فقالت على الفور .

ـ كلا ...

ثم لما رجعت فى نظرتها الفاحصة قالت بعد تردد يسير :

ـ وماذا تريد منه ؟

فشرحت لها مرادى فى اختصـــار ، فنادت المرأة ابنة لها يافعة حافية القدمين وقالت لها بصوت أجش :

ـ نادى أباك ، فهو عند المستأجرين فى الدور الاعلى

ثم قالت لى :

ـ تفضل أيها السيد بالدخول

فدخلت ، فاذا حجرة لابأس بها ، عــلى جدارها صــور كبيرة الحجم ، مافيها الا صورة قائد أو أمير ، وفى وسط الحجرة منضدة مســـتديرة وايوان للجـلوس وأصيص من البلسم .

فلما تركتنى العجوز وحدى قلت لنفسى :

ـ أليس من الخير لك ياصاح أن تخرج الآن ، قبل أن تتلقى صدمة الرفض القاسية ؟ . . . أخرج الآن وعد غدا ، فقد يكون الجو أكثر اعتدالا ، فليس في هذا الصباح مايبشر بالخير ، فقد أراقت السماء فيه ماء المطر ، وأرقت أنت اللبن على عتبة الدار وليس في مرأى هؤلاء القواد الوقورين المهيبين الذين يطالعونك من هذه الجدران مايبشر بالخير والفلاح ! . .

وهممت أن أستقبل الباب ، فاذا صاحبي يدخل منه . . واذا هو رجل أشيب الرأس ، عليه ثوب من أثواب البيت باهت اللون تعلوه طبقة من الاوساخ ، فسألني عن الباعث لي على زيارته فقلت له ان « ايميليان ايفانوفتش » هو الذى أرسلني ، لانني بحاجة الى أربعين روبلا لشأن عاجل ، فرأيت في عينيه رفض طلبي واضحا ، ثم قال لي :

ـ لاجدوى من الحديث ، فليس لدى ماأقرضه . . ثم هل معك ضمان أو رهن ؟

فأجبته :

ـ ليس عندي ضمان أو رهن ، ولكن ايميليان قال انك رجل نجدة ، وأنا بحاجة ماسة الى هذا المبلغ فورا وبأى ثمن . .

فأصغى لكلماتي كلها حتى انتهيت ثم قال :

ـ لاحيلة لي ، فليس عندي مال في الوقت الحاضر .

فوددت في هذه اللحظة لو أن الارض انشقت فابتلعتني يافارينكا . . ولكن الارض لم تنشق ، وبقيت قائما في وسط الغرفة ، في ملتقى نظرات القواد العظام المعلقة صورهم على الجدران وقد دارت بي الارض الفضاء ، واستولت على قشعريرة مباغتة وخانتني ركبتاى وتخاذلت ذراعاى

وجعلت أنظر الى الرجل ، والرجل ينظر الي ، وتكاد نظرته تصيح بي :

ـ أخرج أيها الرجل ! ماذا يبقيك بعد هذا ؟

ولكنى تجلدت وبقيت حيث كنت ، فقال لى فجأة :

ـ ولماذا تريد هذا المبلغ ؟

فعجبت لتطفله الجرىء ، وما فتحت فمى لاجيبه حتى عاد الى الكلام دون أن يصغى لما كنت سأقوله :

ـ كلا ! كلا ! فليس لدى مال والا اديت لك هذه الخدمة عن طيب خاطر .

فحاولت اقناعه ، ورحت أتكلم وأتكلم ، مهونا من قيمة المبلغ الذى أطلبه ، مؤكدا له عزمى على الوفاء به قبل أجله المضروب ، واستعدادى لدفع أيما فائدة يطلبها بغير مماكسة .

وكانت صورتك ياملاكى العزيز هى التى شددت عزمى وأملت لى فى هذا الالحاح . ولكن الرجل ظل على صلابته فلم يلن ، وجعل يردد فى اصرار : ..

ـ لافائدة من الكلام فى الفائدة والربح ، فقد كنت أفكر فى اقراضك لو كان معك رهن أو ضمان ، أما هكذا ياصاحبى فلا ! ليس عندى مال .. أقسم لك بالله العظيم اننى لا أملك هذا المبلغ ، ولو كان معى لما ترددت فى اعطائك اياه . والله على ما أقول شهيد .

ما أشد تبجحه وهو يقسم آثما غير متحرج !

ولم أدر والله يا أختاه كيف عرفت طريق الخروج ، وكيف اخترقت الشوارع دون أن أضل طريقى ، فما كانت فى ذرة من الرشد ..

ولم أصل الى مكتبى فى الديوان الا بعد أن تجاوزت الساعة العاشرة ، ووقفت فى دهليز الديوان قليلا ، ثم فكرت فى تنظيف كسائى مما علق به من الوحول ، بيد أن «سنيبيجيريف» الحاجب نبهنى الى أن هذا العمل من شأنه أن يوسخ الفرشاة ، والفرشاة مما يستعمله سعادة المدير . ثم انها من أملاك الدولة التى ينبغى أن تصان من العبث والتلف ..

الى هـذا الحد ياأختاه بلغ بي الهوان ، حتى على الحجاب والخدم ٠٠ فأنا أهـون شـأنا من حزمة من القش يسمونها فرشاة ٠ ٠ وهـذا الهوان ياأختاه هو الذي يقتلني غما وهمـا ٠ ٠ فليس الافلاس والفقر الى المال في ذاته شيئا ، لولا سـقوط الكرامة وضياع الهيبة ٠ ٠ ولولا ذلك الهمس والغمز واللمز ونظرات السخرية التي أقابل بها في كل مكان ٠٠

واها لي ياأختاه ! لقد مضت الحلاوة عن أيامي ، ولن تعـود اليها ٠

لقد تلوت خطاباتك جميعا في يومي هذا ، فأورثتني هـذه القراءة حزنا على حزن ٠ ٠

وداعا ياصديقتي ، وفي حفظ الله !

مقار ديوفشكين

ملحظ : لقـد حاولت أن أمزج قصة اخواني بالفكاهة ،فجاءت الفكاهة مريرة المعالم ، كأنهـا أنين أخطأ مخارج الصوت٠ وكم كان بودي أن أتبع نصـحك فلا أكترث ٠٠ ولكن هيهات ٠ ٠٠ وسآتي لزيارتك عن قريب ٠٠

١١ أغسطس

بربارة ! يمامتي وأختي !

لقد ضعنا وانتهى الامر ! نزلت الـكارثة بي وبك ، فقضت على سمعتي وشرفي ، وأصابك منها رشاش غير يسير ! لقد بت مضغة في الافواه ، وأضـحوكة للصغار والكبار ٠٠

لقد اجترأت ربة البيت علي ،وأطلقت لسانها فينا بما وسعها من التهم والسباب ، لم تدخـر تصريحـا ولم تأل في الاقذاع جهدا ٠٠ وكنت أنا سبب هـذا البلاء الذي حاق بك منه أسوأ ما يحيق بامرأة مخدرة ٠

قبل الأمس ، وقد أقبل الليل ، اخرج صديق من أصدقاء جاري

« راتازاييف » مســـودة خطاب كتبته اليك ، وكانت قد وقعت من جيبى لشرود ذهنى وضعف بصرى دون أن أدرى .. وأخـذ يقرأ هـــذه المسودة ، والسكان جميعا من حـــوله يعلقون عـلى عباراتها بنكات مقذعة وسخرية لاذعة .. فثرت ووصمت جارى « راتازاييف » بخيـانة الصداقة وعهد الجوار ، فسخر منى قائلا :

ـ بل انت الذى خنت العهد ، ورحت من وراء ظهورنا تقتنص قلوب الغانيات ، أيهـــا الغوى المضل الكهل زير النساء ..

فانطلقوا جميعا يصيحون بى :

ـ زير النساء ! زير النساء !

وباتوا لا ينادوننى الا بذلك اللقب الشائن ! فما أشد خجلى وخزيى ! هم اذن يعــرفون كل شيء . هم اذن على علم بدقائق حياتنا وما بيننا من مودة وتعـاطف ..

والانكى من هذا ان الخادم « فالدونى » بات فى زمرة الهازئين . فلما طلبت اليه اليوم أن يبتاع لى شيئا من الســـوق ، أبى أن يذهب . ولما قلت له وأنا فى عجب من أمره :

ـ ولكن واجبك أن تطيع .

أجابنى بوقاحة :

ـ لســـت ملزما بطاعتك ما دمت لم تدفع أجر سكنك !

فلم أطق صبرا وصحت به :

ـ انت وقح

فرد على السبة بمثلها وزيادة ، فحسبته مخمورا وقلت له :

ـ أراك لســـت فى حالتك الطبيعيـــة ، وما أحســـبك الا مخمورا ..

فصعر الوغد خده وقال لى :

ـ وهل سكرت بمالك ؟ لو كان معـــك ثمن كاس لشربتها ، ولكنك صعلوك مفلس تعيش على صـدقة تجود عليك بهـا امرأة

علمها عند الله وأهل العلم ..

ثم بصق على الارض وقال فى ازدراء :

ـ ومثل هذا العتل يدعوه الناس سيدا !!

. . . .

هذا يا أختاه هو ما صرت اليه اليوم ، حتى بت خجلان من نفسى ، مستخزيا من عيشى

أما لهذا الليل من آخر ؟

لقد هبطت حتى لم يبق مزيد من الهبوط ، وقنطت حتى استنفد آخر مدى القنوط ..

فحتى متى ؟

مقار ديوفشكين

١٣ أغسطس :

عزيزى العزيز

لقد تكاثرت علينا الارزاء ، حتى لم أعد أدرى ما العمل .. وثالثة الاثافى يا صاحبى ان المكواة أحرقت يدى اليسرى ، أحرقتها وأنا شاردة الذهن فلم أتنبه الا بعد فوات الاوان .. وكذلك استحال على العمل حتى تبرأ يدى ..

وهذه فيدورا مريضة منذ ثلاثة أيام ، فلا سبيل لها الى العمل أيضا ، فأنا من هذا فى هم مقيم .

هاك نصف روبل هو كل ما استطعت الحصول عليه ، وليس معى سواه .. والله وحده يعلم كم كنت أود أن أمد لك يد العون فى ظرفك الراهن . . ولكنها ارادة الله !

لقد بكيت قهرا عندما حرقت يدى . بكيت من أجلك ، فقد كنت أريد أن أعمل غاية جهدى لكى أعينك على حياتك .. فتعال لزيارتى اليوم ، ففى ذلك مسلاة لى كما تعلم

بريارة

١٤ أغسطس :

ماذا دهاك بحق السماء يا مقار الكسييفتش ؟ الا تخـاف الله؟ انك تكاد تدفعني الى الجنون دفعا بمسلكك المخزى ٠٠ فاتق الله فى سمعتك ، فقد كنت على الدوام رجلا فاضـلا متزنا أبى الخلق ، فكيف سولت لك نفســك أن تلطخ بالعار لمتك البيضاء ؟

اتق الله يا شـيخ ! لقد ضـاقت فيـدورا بتصرفاتك ذرعا ، وأقسمت لا تساعدك بشيء من كدها بعد اليوم ، ما دمت تبدد ما يصل الى يدك فى العبث الذى يسـقط مروءتك ويفضحك بين الناس ٠ وانى عـلى رأى فيدورافى هذا ، فلن أعطيك بعد اليوم درهما يا مقار الكسييفتش ٠

أم تراك تظن انه يستوى عندى خيرك وشرك ، فضلك ومجانتك صلاحك وفساد أمرك ؟ أو تجهل ما أتحمـل راضية من أجلك ؟ لقد أخزيتني باعوجاج سراطك ، حتى بت لا أجرؤ على الظهور فى درج بيتى ، فمـا يرانى الجيران حتى يشـيروا الى بالبنـان ويتهامسوا بكلام تقشعر منـه الابدان ٠٠ ومنهم من لا يخافت من صوته حين يصمنى بالتفريط فى شرفى فى سـبيل سكير عربيد ! ٠٠ أو تحسـبنى أسر بسماع مثل هذا الكلام ؟

وما من مرة أعادوك الى بيتك غائبا عن الصواب بما عببت من الخمر الا تحدث الناس عنك كما لو كان السكر صفة ملازمة لك لا تستحق مناقشة أو تعقيبا أو دهشة ٠٠ فاخجل لك ٠٠ حتى بات بقائى فى هـذا البيت أمرا لا يطاق بسببك ٠

أجل ، لقد عزمت على الرحيل عن هـذا البيت بأى ثمن ٠ سـأعمل قهرمانة ، أو خادما أو غسالة ٠٠ فأى شيء أفضـل من عار صداقتك ٠

لقد دعوتك فى خطابى السابق لزيارتى ، ولكنك لم تأت ٠٠

فهل صارت توسلاتي عندك الى الهوان ، حتى ما تستجيب لي رجاء يا مقار ؟

ومن أين لك ثمن الشراب ؟ نشدتك الله يا صديقي أن ترحم نفسك وترحمني ، ففي هذا الخمار قضاؤك ، وفيه ضياع سمعتك وسقوط مروءتك .

أرأيت الى ربة بيتك كيف أغلقت الباب في وجهك ولم تأذن لك في الدخول وقد عدت أمس في ساعة متأخرة ، تترنح من شدة السكر .. فقضيت ليلتك ــ او ما بقي منها ــ في دهليز الدار .

أكنت تحسبني لا أعرف هذا ؟ بل أعرفه يا صديقي ، فكل سر يذيع بين الناس ، ولا سيما أسرار السوء وأخبار المآثم .. ولعلك تقدر مبلغ حزني وخجلي حين سمعت الحقيقة من أفواه الناس هذا الصباح .. فاتق الله في نفسك ، وفي شرفك ، وفي قلبي المعذب من أجلك ، فانك توشك أن تقتلني حسرة وأسى .. فما من شيء يعلقني بالحياة الآن الا أنت .. فمن أجلك محياي فلا تكن علة مماتي ، ولا تدع أعباء الفاقة تفسد عليك عزيمتك ومروءتك ، فليس في الفقر ما يعيب المرء ذا المروءة ، وانما يعيبه حقا جنوحه الى المجانة والاسفاف ..

واني أعلم ان يأسك من يسر حالك هو الذي أودى بما تعتصم به من التجمل والجلد ، فانسقت في تيار الشراب . ولكنك مخطيء في هذا القنوط ، فما من عسرة الا الى ميسرة . والله المستعان .. فاعتصم بحبل الله ، واصبر ولا تقنط .

أبعث اليك بعشرين كوبكا لتشتري بها طباقا لغليونك . ولكن نشدتك الله ألا تنفقها في خبيثة من الخبائث ، وأم الخبائث الخمر !

تعال لزيارتنا ، ودع عنك هذا الخجل ، فلا عليك مما فعلت ، ما دمت قد تبت وانبت ، والله يقبل توبة التائبين ، وسيجعل الله لك بعد ضيق فرجا ، والسلام

بربارة

١٩ أغسطس

بربارة ، يا أختى العزيزة !

شد ما يثقل على الخجل ، حتى ليكاد يأخذ على مسالك الانفاس!
ولكن أى ضير فى هذا الذى أقترف ؟ وهل من ضير فى اذابة الهموم فى كأس سميت كأس الحياة ، « لو مسها حجر مسته سراء » . . !؟

أم هل كتب على يا أختاه أن أظل أسير الهموم ، لا أسرى عن فؤادى بعض ما يغص به من الأوصاب ، برشفة من الشراب ، تنسيه ما يلقى من دهره ، وما يعلق بسره وجهره ، من الضعة والهوان ؟

ألا بارك الله فى بنت الحان انما أعب منها جرعة بعد جرعة ، حتى أنسى نعل حذائى الذى ذهب مع الريح ! . لعن الله ذلك النعل ، فما ينفك يشغل دماغى فى اليقظة ،ويتراءى لى فى أحلامى حين أنام !

وما أدرى والله ما لزوم الاحذية للناس ؟ انها قيد وهم .. وما كان قدماء يونان يتخذون الاحذية ، وانما هى خفاف لطاف ، فلماذا نعنى أنفسنا بما لا طائل تحته ؟

فأى عار فيما أفعل يا أختاه ؟ انك والله لتقيمين الدنيا وتقعدينها فى غير جدوى . وأما فيدورا فابلغيها عنى انها امرأة خواء القلب تافهة العقل عتلة زنيمة خبيثة الطوية !

.. وأما ما عرضت به من شعرى الابيض ، فذلك وهم من أوهامك يا أختاه ، فلست من الهرم بحيث تتوهمين .. وان فى لفتوة !

تقولين انك حزنت وبكيت غما وأنا كذلك بكيت يا يمامتى .
والله تعالى مسئول أن يرفع عنا سخطه ومقته ..
واياه أسأل أن يمنحك الصحة والعافية . أما أنا فبخير حال ،
وانى لك على الدوام يا ملاكى

الصديق الوفى
مقار ديوفشكين

٢١ أغسطس :

سيدتى العزيزة وصديقتى بربارة ..

انى أشعر الآن بجسامة خطئى ، فقد أخطأت فى حقك خطأ فادحا . وما أخالنى وقد عنيت قلبك الغض وأضنيته بالهموم الا وحشا ضاريا ..ولكن الحق يا يمامتى اننى لست وحشا ضاريا ، بل رجل طيب القلب، هو أشبه خلق الله بالحمل الوديع ..

فكيف اذن تورطت فى هذه الاخطاء وأنا ذلك الحمل الوديع الطاهر الفؤاد ؟

لا أدرى ! ولكنى أذكر انك بعثت الى ذات مرة نصف روبل « ثلاثين كوبكا » ثم عشرين كوبكا بعد بضعة أيام ..فحز فى نفسى جدا أن أهبط الى هذا الدرك ،وأن تجد فتاة رقيقة القلب مثلك ان التصدق على أمر طبيعى ..لقد كانت دراهمك أيتها الفتاة اليتيمة مثل درهم الارملة المتسولة التى وضعته فى صندوق النذور ، شيئا يرجح ملايين الاغنياء ، ويزيد عليها فى القدر .. ثم احرقت يدك بالمكواة ، ولم يبق لديك ما تأكلين ، ومع ذلك شغلت نفسك بالاحسان الى ، كى أشترى طباقا أو خبزا .. فلما انفقت دراهمك فى طعامى وطباقى ، استولى على ندم شديد .. وما كنت قمينا أن آكل صدقتك أيتها اليتيمة المحرومة دون أن يعصف بى الندم والحزن .. فكان هذا الندم أقوى من احتمالى ، ومن « قشرة » الكرامة الرقيقة التى أتجمل بها أمام

نفسي .. فانهارت هذه القشرة ،وجرفها تيار ندمي وخجلي وحزني ومن هذه اللحظة بدأت قصة سقوطي ، بعد حياة طويلة من التماسك ونقاء الصفحة !

فهل ترينني ملومة على هذا السقوط ؟

لا أظن ! وانما هو القدر ، القدر الذى جعل منى ألعوبة هينة بين يديه القاسيتين ..

لقد كنت أعالج همومي بالتجول فى الشوارع حين صادفني ايميليان ، الموظف الذى رفت منذ زمن من ديواننا ، وكان يحمل أشياء يريد ارتهانها ،لان عياله جياع .. ولكنها أشياء لا ترتهن ، فليست لها قيمة الامن حيث هي تذكارات شخصية وأخذتنى به الشفقة ،ورأينا حانة على الطريق يشع منها الدفء .. وكان الجو باردا يا بربارة ، فملت معه اليها ،وشربنا كأساء ثم شرعنا فى البكاء معا ، على سوء حظنا وسواد أيامنا،فوجدنا فى البكاء راحة ، ثم شربنا كأسا أخرى ، وجعلنا نتذاكر آلامنا وأحزاننا ..وتحدثنا عنك كثيرا يا يمامتى . فبكى ايميليان من أجلك ، فهو رجل طيب القلب،ولكنها مظالم الايام !

فلا تحسبى يا يمامتى انني أجهل ما أنا مدين لك به ، فأنا مدين لك بالحياة كلها ،فقبل أن أعرفك لم أكن حيا ، لقد كنت وحيدا لا أشعر بنفسي أو بمرور أيامي . كنت كالنائم ، والنائم أخو الميت، لا احساس له بالدنيا ومافيها..وكان معارفى يحتقروننى شكلا وموضوعا ، حتى انتهى بي الامر الى تصديقهم ، فاحتقرت نفسي.

ثم ظهرت انت ياملاكي فى أفق حياتى ، فبدلت ظلامها نورا مشرقا ، وبعثت الحياة فى نفسي الموات !..وبدأت أعي وجودي، وأشعر أن لي قلبا ، وان لي روحا،وان لي نفسا كنفوس البشر !

وفى فيض من نورك الذى أفأته على نفسي ، عرفت معنى الطمأنينة ، وهدوء السريرة ،وانجاب عنى الشعور بالمهانة والدونية ، وبت أرى نفسي كفئا لاى انسان ممن كنت أحسبهم

خيرا منى بمراحل ·· ولم تعـد تـكربنى زراية مظهرى وقماءة قامتى ، بعد أن صح عندى قيام شخصيتى الانسانية بمـا انعقد بيننا من صداقة وتقدير ·

فلما كثرت على المحن ، وتداعى ذلك التقـــدير الذى كنت أستمده منك ، انهارت روحى المعنوية ، ولم يقف سقوطي عند حد ··

فاذا أردت بى رحمة فأطوى هذه الصفحة ، ولا تجرى لها بعد اليوم ذكرا ، لانها تهيج مابى ، وتمزق شغاف قلبى ·

ولك خالص احترامى وصادق مودتى

مقار ديوفشكين

في متاهة الزمن

---

٣ سبتمبر :

لقد عاقني الحزن والاسى عن اتمام خطابي السابق اليك يامقار .. فحين تجثم الكآبة على صدري لا اجد في نفسي مطلوعة على الكتابة او الحديث، واركن الى الخلوة كي اترك نفسي على سجيتها ، واطلق العنان لاحزاني ودموعي ..

واري هذه السحائب السوداء قد كثرت في الايام الاخيرة كثرة عظيمة ، حتى صارت اشباح الماضي وتذكاراته تحف بي اكثر مما تحف بي حياتي الواقعة . وقد تستغرقني هذه التذكارات حتى انسى الزمان والمكان وكان الواقع قد تلاشى من الوجود .. وقد تدوم هذه النوبات ساعات متواليات ..

واكثر هذه التذكارات مما يرجع الى عهد الطفولة الناعمة في احضان الريف ..

واما صحتي ، فهي تزداد على الايام ضعفا ، واحسب هذه الذكريات علة ضعفي واستنفاد عافيتي ..

بيد اني ارى هذا الصباح صحو الاديم مشرق الضياء ، على غير المعهود في أيام الخريف . الا شد ما كنت احب الخريف ، أيام كنت في القرية طفلة مرخاة العنان بين الماء والزرع والهواء ، مستقلة بمشاعرها .

في تلك الايام ، كنت أوثر امسيات الخريف على صباحه ولا سيما على حفافي البركة الكبيرة التي تجاور بيتنا ، عند سفح التل . فهناك كنت اجلس اذا أرخى الليل سدوله ، واوت الماشية الى مزاودها ، وسكنت كل نامة في القرية . فاذا صفحة الماء في سكونها وصفائها كأنها سبيكة من البلور ، ودخان الخشب المحترق امام كوخ للصيادين يملأ الهواء الساكن

برائحة خفيفة ، والندى يرصع نابت العشب الاخضر بلؤلؤة في اثر لؤلؤة .. وللهلال في صفحة السماء الصنافية لألاء وبهاء يملأ النفس بهجة وهدوءا .. فاذا خفق جناح طائر ، او روعه عن وكره مروع فصوت فزعا ، ملأ ذلك الصوت آفاق الفضاء . . لان سكون الليل الرطيب قد احال الجو الى صندوق من صناديق الكمان الرنانة ..

شد ما كنت آنس الى هذا السكون الذي يزيل الحوائل بين نفسي وبين رحابة الكون اللامتناهي .. !

كذلك كان الخريف وأمسياته الحسان في ذلك الزمان .. حتى اذا حث الخريف الخطى ، وجاء في اعقابه الشتاء ، تقلبت مسرح خواطري من ضفة البحيرة الى مسالك الغابة ذات الدوح المنيف والظل الوريف ، الذي يضرب الضوء فيه الى الزرقة في النهار حتى اذا قربت ساعة الاصيل استحالت الزرقة سوادا حالكا .

وكثيرا ما كنت انسى نفسي في نزهتي ، فيهجم الليل ، وتتراءى لي الاشجار الباسقة كأنها المردة تهم بالانقضاض على وانا أسير وحدي في قلب الغابة الموحشة .. فأحث الخطى ، وقد جعل قلبي يخفق ويضطرب فكأنني ورقة تتقاذفها الريح ، التي أسمع عزيفها بين الغصون وأحس به يقترب مني كأنه زمزمة تطلقها أفواه الشجر .. واخالها تقول لي في صوت أجش يقطر رهبة ووعيدا ..

— اسرعي أيتها الطفلة .. !اسرعي .. ! فليس هنا مكانك فهو مسرح رهيب لرهيب من الاحداث يكتم سرها الليل الكتوم فأجري ما اسعفتني قدماي وساقاي ، حتى أصل الى بيتنا مبهورة الانفاس ، فاذا الضوء ينبعث من السراج ، والدفء يشيع في الحجرات ، والاصوات المأنوسة تملؤها بهجة وامنا .

فأجلس الى مربيتي العجوز ، فتقص على قصصا رائعا ، تشارك في روعته مخيلتي الناشطة .. حتى ليجفو النوم اجفاني في بعض الليالي ، لكثرة ما تشغل تلك الاقاصيص بالي ، بما فيها من سحرة ومردة ومغامرات .. ولكني كنت أجد نفسي عند مطلع الصبح جمة النشاط كزهرة انعشها ندى الفجر ، وأيقظتها قبلات ضوئه الحاني ..

ومع الصبح تبدأ حياتنا الهانئة الهادئة . فنجلس قرب نار الموقد ، ونحلق باناء الشاي الكبير (السامو فار) ، ويدخل علينا كلبنا « بولكان » وقد جلله الندى لانه بات تحت الطل في العراء أمام باب البيت ، فيحيينا ببصبصة من ذنبه الكث الشعر ويجلس بيننا ، كي ينعم بالدفء .. وكأني بنا كنا نسمع خفق اجنحة السعادة وهي ترفرف فوقنا ، فالمحصول وفير ، والدفء يشملنا ، وكل شيء يبعث على الرضى والطمأنينة .

***

هاهما عيناي وقد استهلتا بالدمع لذكرى تلك الايام الخوالي ، التي بدل الزمن المبدل امنها حزنا ، وانسها وحشة ، وصفاءها كدرا ، وجمالها قبحا ، واطمئنانها بلاء وهما مقيما ..

أما لهذا الليل من آخر .. ؟

اني لأتوجس من هذا الخريف شرا ، وتحدثني نفسي أنه سيشهد ختام أيامي ، فالمرض يلح على الحاحا شديدا ..

وما بي خشية الموت ، ولكني لا أحب أن أدفن في أرض المدينة التي تضيق بالناس ولا تبدي لهم الا الكزازة والكنود ..

وما حيلتي . . ؟ أن العلة تزداد فوق صدري جثوما ، حتى لاخشى أن ألزم الفراش ، وماغادرته الامنذ أيام معدودات شد ما تثقل على الوحدة .. ففيدورا اليوم غائبة عن الدار في شأن من خاص شئونها ، فأسلمتني الوحدة الموحشة

للكآبة والتشاؤم .. ولعل هذه الوحشـــة هى التى أملت على هذا الخطاب الطويل ، فالكتابة اليـك تؤنس وحدتى وتبـدد وحشتى ..

ولكن ما عندى من الورق قد نضب معينه ، فلا محيص عن انهائه عند هذا الحد ..

لقد بقى من ثمن ثيابى والقبعة التى بعتها بالامس روبل من فضة ، ابعث به اليك كى تحاول إصلاح كسائك قدر ماتستطيع وان كان قد صـار الى حـالة تستعصي على كل اصلاح ..

أرانى تعبت وأصابنى الكلال .. ولست أدرى لماذا يسرع الى التعب وشيكا لاقل مجهود .. حتى ما ادرى ما أصنع لو ساق الى الله عملا .. ما أحسبه الا قاتلى ..

بربارة

٥ سبتمبر :

يمامتى وعزيزتى فارينكا !

تداولتنى هذا الصباح أحساسات شـتى ، حتى اضطربت نفسى ، فرحت انشد عند الاصيل شيئا من الراحة والهـدوء على الشاطىء .. وكان المساء حالك الظلمـة ، وفى الجو اثارة من الرطوبة .. ولم تكن الساعة مع هذا قد جاوزت السادسة .

وكانت صفحة السماء مغطاة بالغيوم ، وعلى شاطىء الترعة زحمة من الناس تساوق زحمة السحاب فى أفق الليل ..

ومن عجب ان ذلك الجمـع الحافل من الناس لم يكن فيـه الا كل وجه هضيم ، وكل سحنة للكآبة عليها مسحة وذبول .

وجميعهم من نفاية المجتمع بين نسوة ورجال ، فليسـت ترعة « فونتانكا » من منازه السـادة وأهل السمت .. !

وضقت بالمكان ورواده ، فعدلت عنه الى شوارع المدينة

فساقتني قدماي الى شارع « جورو خوفايا » .. فاذا انوار وحركة وتجارة نافقة وواجهات جميلة وازهار مونقة ..

وقد حسبت والله أن كل هذا الجمال المختلف الالوان مما جعل للزينة ولذة العيون والأذواق ، ولكني رأيت نفرا من الناس يشترون ذلك الجمال ، فيحصلون عليه لقاء ما يبذلونه من المال ..

وأما أرض الشارع ، فما ادري والله كيف كانت تتحمل كل هذه العربات المطهمة التي كانت تدرج فوقها غادية رائحة ، فى ابهة وخيلاء : فالزجاج لامع كأنه المرايا المصقولة ، ومن خلفه الخز والديباج ، يجلس بين ثناياه فتية موشاة صدورهم ، وفى جنوبهم الاسياف الصقال . . ونساء كأنهن الاقمار ، عليهن الدر والياقوت وريش الطاووس .. وعليهن جلال الامارة .. فلعلهن من الاميرات ، وان لم يكن أميرات فدوقات أو كونتات وما أشوقني أن أرى أميرة او كونتة رأى العيان عن كثب ..! ولكن هيهات .. ! لا يكلف الله نفسا الا وسعها .. !

لقد خطرت ببالي فى تلك الساعة يا يمامتي الجميلة ، وصديقتي العزيزة . . وما تخطرين ببالي ، حتى يتنزى قلبي الما لما تلقين من دهرك الغشوم وقضائك الظلوم .. !

بماذا تفضلك يا يمامتي اى واحدة من هاتيك المترفات الناعمات ، وانك لطيبة النحيزة حلوة الشمائل ، سرية النفس ، زكية الفؤاد ، وأنك لحسناء كالبدر ليلة التم ، رقيقة كالزهرة

فلماذا يا الهي تشقى من ليست للشقاء بأهل .. ؟ لماذا ألتمس أسباب السعادة فتخطئها جميعا سببا بعد سبب . . !

اغفرى لى يا اختاه هذه الثورة المتمردة ، فاني عالم انها خطيئة وكفران لا يليق بالرجل الفاضل ، لانها من قبيل الافكار

التقدمية الملعونة .. ولكنني لا أملك — مع هذا — إلا أن أتساءل مرة أخرى : « لماذا يشقى أناس وينعم آخرون .. ؟ لماذا يكتب الشقاء على قوم دون ذنب ، ويكتب الرغد وخفض العيش لقوم آخرين دون استحقاق ؟»

هذه والله حيرة العقول ، وحيرة الضمائر والقلوب .. ! فكم من مخلوق لا يساوي ملء اذنه نخالة . . فلا فكر ولا احساس ولا ذوق ، هبطت عليه محاباة القدر ، فقال له :

— اسمع يا هذا .. ! لست شيئا ، ولكني اريد لك ان تتمتع بكل شيء .. ! فهذا ميراث جدك الراحل يغل عليك أكداس الاموال ، فكل واشرب ، وكل ما اشتهيت فهو لك . . فهذه ارادتي ، ولهذا ينبغي أن تعيش !

فلماذا لا تكون لك يا يمامتي عربة مطهمة ، وأثواب من خز وديباج ، فسيتجدي القواد والامراء نظرة من عينيك الساحرتين وانت تتيهين عليهم بجمالك وشبابك النضير .. ؟ !

لماذا لا تجدين شبع بطنك من جوع ، فلا تكدحي وانت مريضة ، حتى يشتد عليك الهزال وتصطلح عليك الادواء ؟ !

لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا .. ؟

لو كان لك شيء من ذلك لكان حسبي من الدنيا وما فيها ومن فيها ان أرمقك من بعيد وأفرح لهنائك ومجدك ..

ولكنك وأسفاه ، فتاة يتيمة ، بلا مال ، وبلا معين ، وبلا سند يقيك غائلة الدهر ، وغائلة ذئاب البشر ، أولئك الوحوش الذين لا ينظرون اليك الا نظر الصائد للطير والباشق للعصفور، يأتمرون بك لانك ضعيفة ، مهيضة الجناح ، بلا أبوين وبلا مال .. !

الا قاتل الله الفقر يا أختاه !

وقاتل الله رجالا يعدون على من لا حامي لها ولا راع ، فهم

أشباه رجال ولا رجال ، وذئاب وبنات آوى فى أجلاد آدميين .. !

ويا رحمتا لنا نحن عيال الله الفقراء من عباد الله الذين حباهم الثراء وسلبهم الاريحية والإباء !

خير منهم والله عازف الارغول الذى يجهد شدقيه وصدره كى يرسل انغامه العذاب سلوة للناس .. فهو انسان كريم ، يمنح الناس لذة ومتاعا ، وليس ساطيا عليهم يسلبهم أمنهم متى أمن المقاومة والعقاب ..

وانا يا أختاه من طراز هذا العازف الفقير الهين الشأن ، فانا ايضا أبذل طاقتى فى اعطاء المجموع الذى أعيش فيه ثمرة جهدى المتواضعة ، ولا أسطو على أحد باغيا عاديا ..

***

لقد وقفت يا اختاه ارقب منذ أيام جماعة من الاطفال الحفاة العراة ينتفضون من شدة البرد ، وأمهم العجوز — من اثر الفاقة لا بفعل السن — تستندى اكف المارة بقصة جوعهم وفاقتهم ، وما نزل بهم من كوارث شداد .. فكان المارة يضيقون بها وينهرونها ويمضون فى طريقهم ساخطين .. فعرفت يا اختاه أن ذوى اليسار لا يحبون من الفقير أن يصرخ فى آذانهم بقصة شقائه ، فذلك قمين ان يفسد عليهم جوهم الناعم وعيشهم الخفيض .. فالفقر شىء منكر قبيح .. والناس يكرهون المنكر والقبيح .. !

عفوا لهذا الاستطراد ، فانى اجد فى كتابة جميع خواطرى اليك راحة وسلوى ، فقد أبت من نزهتى مكدود الخاطر ؛ تعترض الغصص حلقى ، ولا أجد للحياة طعما سائغا ، فاذا « جورشكوف » — ذلك الموظف المفصول من الخدمة الذى يعيش واسرته كلها فى غرفة واحدة من بيتنا ، والذى مات احد اولاده منذ مدة قريبة — اذا بهذا الرجل يدخل غرفتى فى استكانة

ومذلة ، ويطلب مني – مني انا – أن أعطيه شيئا لبنيه الذين أضر بهم الجوع .. !

أختاه .. ! ان هذا فظيع !

لقد حاولت ان افهمه انني مثله رجل فقير ، وانني حاولت الحصول مثله على قرض فلم أفلح ، ولكنه ظل يردد على سمعي جوع اولاده وحاجتهم الى الخبز القفار منذ يومين ، وان سائر السكان يضيقون به ولا يفهمون ولا يرحمون . . فتذكرت أن الناس لا يفهمونني ولا يرقون لفقري وحاجتي ، بل يهزأون بي .. فأعطيته العشرين كوبكا التي كنت قد حرمت نفسك منها لتبعثي الي بها .. فجعل يشكرني بعبارات متعثرة ..

فسألته كيف انتهى الى هذا الفقر المدقع ، فحكى لي قصته وانها لعجيبة من عجائب الظلم وسوء الطالع .. فقد كان يعمل في احد دواوين الحكومة ، عملا يتصل بأعمال المقاولين الذين ينشئون الدور الحكومية ، فزور ذلك المقاول في أوراق العمل دون ان يدري جورشكوف المسكين ، فلما ضبط التزوير جر المقاول الخبيث جورشكوف معه الى التهمة ، ففصل من العمل . . فقدم جورشكوف تظلما ورفع الى القضاء قضية تعويض ضد المقاول .. ولكن هذه الامور كما تعلمين رهن بالوساطات والنفوذ . . وجورشكوف مثلنا لا نفوذ له ، وليس محسوبا على احد من ذوي النفوذ . . فانقضت سنوات دون ان يفصل في هذه القضية التي لا تزال تتعثر أمام دور المحاكم ..

ومن يدري .. ؟ ان الامل في انصاف امثاله جد قليل . واني لارق له رقة شديدة ، حتى ما ادري كيف سيواتيني النوم هذه الليلة .. ؟

ان هذا المسكين لا يجد عملاالان فصله من الخدمة سلبه حقه في الثقة به ولو كان رجلا شريفا . . والبطون لا ترحم يا أختاه !
وقد ساءت صحته في الشهور الاخيرة ، ولا سيما بعد موت ولده ، واصابه داء لا امل في شفائه منه .. فهو اشقى مني بكثير ، وشقاؤه يزعجني ويقض مضجعي ، ويجعلني اكرر سؤالي
ـ رباه .. ! لماذا كل هذا الشقاء .. ؟ وماذا يمكن ان تكون الحكمة منه .. ؟ !
ولكني أثوب الى رشدي واستغفره سبحانه . انه هو العزيز الحكيم والرحمن الرحيم

...

والآن سلاما يا يمامتي .. ومتعك الله بالعافية .. فأنت ريحانتي التي استروح منها الحياة حين يخطر ذكرك ببالي المكدود .. وحتى اذا تألمت لك حين اذكرك ، فما اعذبه من ألم لانك موضوعه الجميل يا صديقتي ونور أيامي ..

مقار ديوفشكين

يـــد اللـــه

٩ سبتمبر

أختى بربارة الكسيفنا !

أكتب اليك وأنا فى حال من الاضطراب ليس عليها من مزيد. فقد هزني الحادث الذى مر بى اليوم هزا عنيفا ..حتى ماأدرى كيف أبدأ بالافضاء به اليك .فهو شيء غير منتظر ، وليست له فى ظننا سابقة بشير، وان كنت قد رأيت فى المنام منذ ليال رؤيا تبعث على الارتياح .. وأحسب هذا الذى وقع لى اليوم تأويلها، والله أعلم !

ألم أقل لك فى خطابى ان الله هو العزيز الحكيم ، الرحمن الرحيم ؟ ..

هو كذلك سبحانك ولاشك !

بالامس حضر الى مكتبى « تيموثاوس ايفانوفتش » رئيس الادارة، وتواضع فكلفنى شخصيا بكتابة وثيقة هامة عاجلة للعرض على سعادة المدير العام ،وأوصانى أن أجود الخط ، وأنمق التنسيق فكتبتها على خير ماوسعنى فى تلك الساعة ، فقد كنت بالامس يايمامتى على غير مايرام ، ضيق صدر وشرود ذهن .. وكانت صورتك لاتفارق مخيلتى ..

ولست أدرى أى شيطان من شياطين النحس ركب يدى فى تلك الساعة ، فنسيت سطرا كاملا ، فأصبحت الوثيقة كلها ولامعنى لها .. دون أن يفطن الى ذلك أحد . ويظهر أن الوقت لم يتسع أمس لعرضها على المدير العام ، فعرضت عليه فى أول هذا النهار .

وذهبت أنا اليوم الى المكتب خالى الذهن ، فجلست كالعادة وانصرفت الى الكتابة والتحبير..ولا أكتمك أن أعصابى قد أضحت فى المدة الاخيرة شديدة التوتر، وصرت أتجنب النظر الى وجوه الناس ، حتى لاتلتقى عيناى بعيونهم . واذا أحدث كرسى من

كراسي الموظفين صوتا خفيفا اضطربت له وقفزت من مقعدى وجلا !

بيد اننى كنت هذا الصباح فى حالة أشد نكرا من مألوف أحوالى ، حتى أن الكاتب « اكيموفتش » ــ وهو من شرار الخلق واكثرهم رقاعة ــ سألنى:

ــ ماذا بك اليوم يامقار ؟ انك لتبدو مقلوب السحنة !

ثم قلب سحنته ليقلدنى ، فانفجر جميع من فى المكتب ضاحكين وشعرت بالعرق يتصبب من جبينى فى هذا الجو البارد ٠٠ وانكمشت فى مكانى خزيا ، وأغمضت أجفانى كى لا أراهم وهم يتلوون من شدة الضحك ٠ فتلك عادتى اذا سخروا منى ، فالمقاومة تغريهم بالاستمرار فى العبث ، والاغضاء يصرفهم عنى ٠

وفى هذه اللحظة بالذات سمعت ضجة فى الدهليز الخارجى ، ووقع أقدام تجرى من هنا وهناك ، ثم سمعت ما أنكرته أول الامر ، وعزوته الى وهم من أثر ما حدث حولى من ألاعيب أولئك الخبثاء ٠٠ ولكن الصوت تكرر وازداد قربا ، فأيقنت أن أذنى لم تخدعنى ٠٠ وان هناك من ينادينى فعلا وصدقا .

فاشتدت عندئذ دقات قلبى ، واستولى على فزع جائح ٠

ولست أدرى على وجه التحقيق علة هذا الخوف الذى أصابنى ، ولعله راجع الى اننى كنت دائما رجلا مغمورا لا يكترث لى أحد ، ولم آلف أن ينادينى أحد ليسدى الى يدا ، فما يذكروننى الا بالسوء !

وبلغ من هلعى اننى زدت تشبثا بمقعدى ، وتجاهلت اننى سمعت النداء باسمى مثنى وثلاث ولكن ضجة المنادين اقتربت منى حتى صارت لصق أذنى ٠

وصاح فيها أحدهم ــ حتى أوشك أن يخرقها بسياحه :

ــ ديوفشكين ٠ ديوفشكين ٠٠ هيا يارجل ، اسرع ! فأنت مطلوب فى مكتب سعادة المدير العام ٠ ٠

ــ المدير العام ؟

– أجل ! فقد أفسدت وثيقة الامس، ونجم عن ذلك بلاء عظيم.
فأحسست كأن الصواعق قد انقضت على أم رأسي انقضاضا، وسرت البرودة الى أطـــرافي، وشلني الفزع الاكبر.. ولكنهم لم يدعوا الى فرصـــة للراحـــة واســـترداد جأشي الذى أطاشته الصدمة المباغتة، فسعادة المدير العام فى الانتظار، ولا ينبغي أن يظل سعادته فى الانتظار.

ومشيت كما يمشي حالم فى المنام، غير شاعر بشيء مما يدور حولي، فأنا أقرب الى الموتى مني الى الاحياء.. فجازوا بي حجرة فسيحة، من داخلها أخرى، ومن داخل تلك ثالثة هي مكتب سعادة المدير العام، فما شعرت الا وأنا قائم أمامه، بل «مزروع» أمامه زرعا، فقد كانت قدماي كالغائصتين فى أرض الحجرة الفاخرة..

ومن أعظم المحال أن أصف لك شـــعوري وفكري فى ذلك الموقف العصيب، فما أذكر انني كنت أعي شيئا، ســـوى مثولي أمام صاحب السعادة، الذى كان محوطا بكوكبة من رؤساء الادارات والاقلام..

وبلغ بي الذهول انني لم أســـلم على صـــاحب السعادة، بل وقفت هكذا كالجماد، فاغر الفم محملق العينـــين، وركبتـــاي تصطـــكان من هـــول الموقـــف اصطكاكا.

وحدث في هذه اللحظة ما زاد موقفي سوءا، بيني وبين نفسي على الاقل: فقـــد رفعت عيني، فاذا أمامي مرآة كبـــيرة بطول الحائط، رأيت فيها ما أطار البقية الباقية من صوابي: رأيت صورتي بما تتسم به من ملبس زري ومنظر منفر..

وأنت تعلمين يا أختـــاه انني كنت أتسلل حتى لا ألفت الى أنظار زملائي، أما صاحب السعادة فلم يدخل فى حسابي من قبل، لانه لم يكن يعلم عـــلى الارجح مجرد وجودي تحت ادارته السنية.

وبدأ صاحب السعادة الكلام بصوت ينم عن استياء شـــديد وغضب مكتوم. قال:

ـ كيف وقع هذا منك أيها السيد ؟ أين كانت عيناك حين كتبت هذا التخليط ؟ هذه وثيقة هامة من وثائق حكومة صاحب الجلالة المقدسة قيصر جميع البلاد الروسية ، وقد طلبتها على وجه الاستعجال ، فكيف سمحت لنفسك أن تفسدها على هذا النحو؟ فيم كنت تفكر أيها السيد وأنت تكتبها ؟ وأى خاطر كان أولى بذهنك من عمل الدولة ؟

والتفت صاحب السعادة الى من حوله من رجال الحاشية ، فهزوا رؤوسهم هزة أسف عميق حتى خيل الى اننى أحدثت الحدث الذى لم يسبق من قبل، وسمعت ـ من خلال الضباب الذى غشى سمعي وبصرى ـ قائلا منهم يقول :

ـ يالك من مهمل يجر علينا اهمالك أشد المتاعب !

ففتحت يدى ، أهم أن أقول شيئا على سبيل الاعتذار ،ولكنى لم أدر ماذا أقول ، فسكت وأن ظل فمى مفتوحا ! واعترانى خجل شديد وفزع حتى لقد فكرت فى الفرار ! ولكن أنى لى أن أفر وأنا كالفأر بين عشرات الهررة الواعية !

وحدث فى هذه اللحظة ،وأنا أغالب فكرة الفرار ماارتعد له الآن فرقا حتى ليكاد القلم يسقط من يدى ! فقد سقط زر من أزرار كسائى المعدنية، كان معلقا بخيط واحد واه ، ويظهر اننى لمسته بيدى فانفلت وسقط على الارض، وجعل يقفز ويتدحرج محدثا صوتا خالته أذناى دوى مدفع أو أهول وقعا ..

وهل تدرين أين اختار هذا الزر اللعين أن يستقر ؟ بين قدمى حضرة صاحب السعادة المدير العام ..فكأن سقوط هذا الزر، واستقراره بين قدمى سعادته هو كل ما استطعت تقديمه لسعادته من العذر عن خطئي الجسيم ..

وكأنما نبه هذا الزر سعادة المدير العام الى بشاعة مظهرى ، فجعل يصعد بصره فى .. وكأنما أفقدتنى نظرته الفاحصة بقية عقلى ، فانحنيت لالتقط الزر ،ولكن الزر اللعين جعل يفلت من

أصابعي ويدور ويتدحرج ،وأناالاحقه فى اصرار ، وقد زودتنى الخيبة اضطرابا على اضطراب٠٠فدارت الحجرة منحولى ،وجعلت أصوات غامضة تطن فى أذنى ،وخيل الى انى أسمع فالدونى خادمالبيتوهو يهزأ بىساخرا٠وشعرت أن كيانى الرسمى والانسانى كله قد أهدر ، واننىقدمت موتا مدنيا ٠

وأخيرا استطعت القبض علىالزر المشئوم ، فرحت أحاول فى بلاهة شديدة أن أعيده سيرتهالاولى فى موضعه من كسائى ، كأن ذلك أمر فى المقدور ٠٠

وجعل المدير يحملقفى برهةثم التفت الى رئيسى المباشروقال له :

ــ ماهذا ؟ ألاترى كيف يبدو؟ ماذا به ؟

فقال الرجل :

ــ انه لم يتقدم بأى تظلم منسوء حاله ، وهو يتقاضى مرتبا عادلا بحسب القدرالقانونى ٠٠أما مسلكه فىالعمل خلالخدمته الطويلة فمسلك نموذجي ٠

ــ أليس فى المقدور مساعدتهبشىء ٠٠ ولو بقرض يحسبمن مرتبه مثلا ٠٠

ــ لقد قبضمرتبه جملة شهور سلفا ٠٠ ويظهر انه يعانى مشاكل خاصة تسبب له عناء كبيرا ،فصفحة خدمتهنقيةخالية من مثل هذا الخطأ ٠

وكان الدم يندفع الى وجهىوأنا أسمع هذه المناقشة التى تدور حول عملى ، وحول خصوصياتى ، حتىكأن لفحةمن نار السعير قد ناشت وجهى٠٠فتمنيت لو وافانى الموت وأنافى مكانى ذاك ٠

فلما انتهى هذا الحوار الهامس ، قال سعادة المدير بصوت عال :

ــ أعدوا صورة أخرى من هذه الوثيقة ، وبغاية السرعة !

وانت ياديو فشكين تعال هنا الى جوارى .. أعد كتابة هذه الوثيقة ولا تخطىء فى النقل هـذه المرة .. وبهذه المناسبة ..

ثم التفت الى جميع من حـوله ، فألقى الى كل واحـد منهم أمرا عاجلا ، فانصرفوا مسرعين ، حتى بقيت معه وحدى ، فأخرج حافظة نقوده قدم لى منهـا مائة روبل وهو يقول لى :

ـ هذا ما أستطيع اعطاءك يا صديقى ، فخذه ولا تتحرج ، فهو قرض ترده لى متى استطعت .

ودس الورقة فى يدى ، وأنا صامت لا أستطيع نطقا ، وان كانت كل جارحة من جوارح بدنى ترتجف ارتجافا شديدا .. فانحنيت على يده أهم أن أقبلها ، فتضرج وجهه بحمرة قانية وشد على يدى وهزها هزة ولى حميم ، كما يفعل الأكفاء . . فشعرت كأننى كبرت بعـد صـغار ، وارتفعت بعـد اتضاع . ثم قال لى فى لطف :

ـ امض الآن ياصاحبى ، فقد فعلت لك ماوسعنى ، وتحرز من الخطأ فى المستقبل . أما هذه المرة فعفا الله عما سلف ..

لقد رد الرجل على ما ضاع من كرامتى وشجاعتى الادبيـة وتقـديرى لنفسى ، ورد على أيضـا أسباب العيش وصلاح الحال .

وهاك الآن ياأختاه ماقررته : سأطلب منك ومن فيـدورا أن تشكرا سعادة المدير فى صلاتكما كل يوم . ذلك حقى عندكما ، حق الوالد على بنيه ، فأنتما لى بديل من الاسرة والولد . .

وأى عجب فى هـذا الطلب ؟ ألست كنت ميتا فأحيا موات نفسى ، وكنت هينا فرفع قدرى وأعلى رأسى ، وكنت مضيعا لاألم على أشتات فكرى فرفع عنى هذه اللعنـة ، وكنت سيىء الظن بالناس ، وسوء ظنى بالنـاس يحزننى فوق حزنى لسوء حالى ، فأعاد الى الثقة بالناس ، وبالخير ، وبأصـبع العنـاية التى كنت أفتقدها فى شئون البشر ؟ ..

***

عفوك ياأختـاه اذا كنت قدأطلت ، فانى أحس فى نفسى اضطرابا شديدا . وماظنك بمن فقد البصر ففتحت عيناه فجأةعلى النور فى وهج الظهيرة ؟

ان قلبى يكاد ينشق من شدةالخفقان ، ويكاد يطير عن أضالعى لكثرة مايقيمه الفرح ويقعده ..وأحس الى جانب هذا خدرا فى أعضاء جسمى وتفككا فى أوصالى، كشعور المرء حين يقطع مرحلة طويلة وهو راجل ، حتى اذا بلغ مراده أحس بما شغلته الرحلة عن الاحساس به من التعب والنصب .

وانى أرسل اليك مع هذه السطور خمسة وأربعين روبلا، وسأعطى لربة البيت عشرين روبلا ، وسأصلح شأن ثيابى بعشرين روبلا مثلها ، ويبقى لى بعد ذلك خمسة عشر روبلا لنفقة طعامى وما اليه ..

أما الآن فسآوى الى فراشى، لعلنى استجم من هذه الهزات التى توالت على فى نقائضها العنيفة هذا الصباح ..

وسأجتهد فى زيارتك قريبا، أما الآن فما أرانى أصلح لذلك، لأن مابى هو السكر ولا خمر ،فما تلم جارحة منى بجارحة الا بجهد جهيد .

وأختم رسالتى ياأختاه بشكر الله ، فانه حقا هو العزيز الحكيم، السميع العليم ، الرحمن الرحيم ..

وانى لك يايمامتى المعبوده

الولى الصادق الحميم

مقار ديوفشكين

١٠ سبتمبر

عزيزى العزيز مقار

أسعدنى ماأسعدك من حسن الطالع ، وان مديرك ياصديقى لأهل لكل صالحة وكل شكران .. والحمد لله الذى أتاح لك

شيئا من هدوء البال بعد الذي عانيت من العناء هـــذا الزمن الطويل .

ولكنني استحلفك بالله، وبكل عزيز لديك ، ألا تعود الى بسط يدك والتبذير فيما لا لزوم له ، وعليك بالقصد في النفقة ماوسعك القصد ، وأقنع بعيش الكفاف، ذلك أجمل بك وأحسن عقبى ..

واجعل همك منذ اليـوم أن تدخر شـــيئا من دخلك ، حتى لا تعود الى ماكنت فيه من ضائقة تسقط المروءة وتريق ماء الوجه اذا حزبك أمر من الامور على غير انتظار ..

اما أنا ياصـــديقي ، فـــلا تجشم نفســـك معاناة ما يكتنف حياتي من الشـــدائد ، وماكان ينبغي أن تبعث الى بهذا المبلغ الجسيم ، فلست أطمع في شيء ليس عندي ، وأنا بحياتي راضية والحمـــد لله .. وليس للمال عندي نفع الا في النقلة من هذا البيت ، ولكن فيدوزا ستقبض عن قريب مبلغا متجمدا لهـــا يكفي لهذا الغرض وزيادة ..

واني أحتفظ مع هذا من هديتك بعشرين روبلا ، وأرد اليك الباقي شاكرة لك شـــعورك النبيل ، ومكررة على سمعك نصـــحي أن تقتصد في نفقاتك ، وألا تبسط يدك كل البسط .

وكنت أود أن استرسل في الكتابة اليك بهـــذه المناســـبة السعيدة ، لولا ماأشعر به من الضعف الشـــديد ، فقد لزمت بالامس فراشي ولم أبرحه طول النهار .. وهأنذى اليوم أحس بالتعب ينهك قواي .

لاتنس وعـــدك لي بالزيارة ، فأنا في الانتظار ..

بربارة

١١ سبتمبر

عزيزتي العزيزة !

استحلفك بالله ياعزيزتى وأضرع اليك وأتوسل ألا تتخلى الآن عنى ، وقد بدأت المقادير تبتسم لى ·· أم تأبين الاالكدر، وقد صفا العيش وطاب ما كان خبيثا من مهاد القدر ؟ · ·

يمامتى !

لاتعيرى فيدورا سمعك ، وثقى اننى سأكون طوع بنانك ، وعند أمرك ، ولكن لاتتركينى وحيدا فى الظلام يانور أيامى ·· سأتحرى الاستقامة وسمت اللياقة والكرامة حتى ترضى عنى ·· وستستمر الرسائل بيننا سفيرا أمينا ينقل أفكارنا وخواطرنا ، ويوثق مابيننا من صداقة طاهرة· · ولكنها ستكون منذ اليوم رسائل صفاء لارسائل أحزان وارزاء · · وسنكون صديقين فى السراء كما كنا صديقين فى الضراء · · أم تأبين على تمام النعمة ، وتسعين الى تحسرى على أيام المسغبة والفاقة ، لأنها كانت تجمعنا فى عروة وثقى ؟

هل لديك مايكفيك من الخشب ، فالبرد شديد فى المساء ، ولا تؤمن غدرات هذا الجو المتقلب ، وأخشى أن تصيبك نازلة من نوازل البرد ··

آه يا فارينكا ! لو تعلمين كم أنتفض فرقا وفزعا لمجرد تفكيرى فى احتمال مرضك ، انى حرى أن أموت حزنا لو أصابك مكروه يا فارينكا ..

ولو سمعتنى أصلى يافارينكا ، لعلمت كيف أدعو لك الله من كل قلبى وكيف ابتهل اليه أن يبقيك لى ·· والحق اننى لاأصلى الا من أجلك ، ومن أجل سعادة المدير ، بارك الله فى عمره !

وهل عندك جوارب من الصوف ؟ خبرينى الحقيقة ، فصحتك أثمن شىء فى الوجود ·· ولا تتحرجى من التصريح لى بما ينقصك ياأختاه ·

لقد مضت أيام النحس الى غير رجعة ..

تناولت اليوم خطاباتك جميعا، فقبلتها ، واحدا واحدا ، لأنها كانت عزائي الوحيد في أيام تعاستي ونكسي .. فلولاك يايمامتي لقضيت يأسا وأسفا..

والآن وداعا ياأختاه ، فقد وصفوا لي كساء جديدا ، أعنى انه في حكم الجديد ، واني ذاهب من توي لمشاهدته ..

صديقك الصادق الولاء

مقار ديوفشكين

عند صفو الليالى

١٥ سبتمبر

عزيزى السيد مقار !

انى اليوم فى أقصى حالات الاضطراب والحيرة ، فقد جاءتنى أنباء تحمل فى طواياها الهول لى فالسيد « بيكوف » ـ وأنت تعلم تاريخه المشئوم معى ـ موجود فى بطرسبورج ، وقد لقيته فيدورا بالامس . فلما رآها وقف عربته ودنا منها ، وسألها عن مقامها الآن ، ودقق فى تحرى العنوان .

وقد رفضت « فيدورا » أن تعيره العنوان أول الامر ، ولكنه عرض بى تعريضا ساخرا ، فلم تطق المسكينة صبرا ، وراحت تمطره فى وسط الشارع وابلا من الاتهامات ، وجابهته بما سببه لى ـ أنا اليتيمة المهيضة الجناح ـ من الكوارث والاحزان .

وانصرفت فيدورا راجعة الى البيت ، وروت لى ماوقع بينهما ، فاستخلصنا من كلامه انه لايعرف مقرنا ، وحمدنا الله على ذلك .. ولكن ماكدت أخرج ساعة الاصيل الى السوق ، حتى دخل حجرتنا فقد سأل « أنا فيودروفنا » وعرف منها العنوان ، ثم عنى بدراسة المنطقة وأحوال سكانها قبل أن يطرق بابى .

وبعد أن قلب بين يديه بعض الملابس التى أحيكها وأطرزها ، سأل فيدورا بغير مقدمات ذلك السؤال المباغت :

ـ من هذا الموظف الذى تربطكما به كل هذه الصداقة المتينة الاسباب ؟

واتفق مرورك فى هذه اللحظة عبر فناء الدار ، فأشارت فيدورا بسبابتها نحوك ، فألقى عليك نظرة خاطفة ثم ابتسم ! فرجته فيدورا حينئذ أن ينصرف ، لان الاحزان والاشجان تضنيني ، وصحتى لاتسمح لى بمثل هذا الموقف العصيب اذا أنا عدت قبل انصرافه ورأيته فى حجرتى ..

فسكت لحظة ثم قال انه ماجاء لغاية ، بل لمجرد الزيارة ، ثم عرض على فيدورا خمسة وعشرين روبلا ، فرفضت قبولها بطبيعة الحال .

فما معنى هذه الزيارة ؟ وماذا يريد منا ؟ وانى لاعجب كيف تبلغه اخبارنا ، فهو فيما يلوح عليم بأحوالنا كافة ؟ ..

انى لحائرة واخشى أن يعود الى مثل هذه الزيارة فى حضورى .. وما أشد جزعى لمجرد التفكير فى هذا الامر .. فعندما روت لى فيدورا ما حدث عند عودتى ، انتابنى الذعر ، وأوشكت أن يغشى على فزعا !

ماذا يريد بى أولئك الناس بعد الذى أحدثوا فى حياتى من الاضطراب ؟

انى لاأريد أن أعرفهم ، ولا أحب أن يذكرنى بهم مذكر ، وان كان النسيان والسفاه من رابع المستحيلات ! ..

لقد اضطربت أعصابى وأفلت منى زمامها ، وبت أتوهم فى كل لحظة انى سأراه ماثلا أمامى .. ولست أدرى ماذا سيحدث لى لو أن هذا وقع فعلا ..

ترى ماذا يخبىء لى القدر بعد الذى كان منه فيما سلف من الدهر ؟

أتوسل اليك بحق السماء أن تخف لزيارتى أيها الصديق .. تعال ، فانى أحوج ماأكون الى قربك

بربارة

١٨ سبتمبر

أختى العزيزة !

وقع فى بيتنا اليوم حادث من أعجب الحوادث وأدعاها للحزن والاسى .

أنت تعرفين جورشكوف ، الموظف المفصول ذا العيال ،

الذى مات ولده منـــذ شهور ، وأعياه أن يقوت من بقى منهم ..
هذا الرجــل المظلوم قد أنصفه القضاء أخيرا ، بعد أن استنفد جهد البشر والملائـكة فى مغالبة الجوع .. وحكمت المحكمة له أمس بتعويض كبير .

وذهب الرجل اليوم الى المحكمة ليسأل عن نتيجة الحكم ، فزفوا اليه هـذه البشرى ، فعـــاد الى البيت فى الســاعة الثالثة بوجه شاحب فى بياض الثلج ، وكانت شفتاه تختلجان اختلاجا لاارادة له فيه ، ولاحيلة له فى رده عنهما .. ولكنه مع هذا كان يبتسم ابتسامة يسهم فيها كيانه كله ، عـــلى مابه من اكفهـرار وتخاذل ...

وقبل الرجل زوجته وولديه ، وأسرعنا كلنا الى حجرتهم لنزف اليه التهنئة الحارة على هذه النعمة الطارئة ، التى أنقذته من العوز ، وانتشلته من المذلة ومسحت عن جبينه ماكان عالقا به من وصمة التدليس ..

وسر المسكين بتهنئتنا ، حتى لم يكن يدرى كيف يشـكرنا ، فجعل يحيى باليمين والشمال ، ويشد على يد كل واحد منـــا أكثر من مرة واحدة ، لفرط مابه من اضطراب وذهول ..

وخيل لى أن السعادة التى جاءته على يأس قد أطالت من قامته ، ومدت من هامته ، فانتصب عوده بعد تطامن .. وبدا لى أن الدموع التى كانت تنهل دواما من عينيه قد انقطع مسيلها ..

أما حديثه فكان نشازا لاتلم منه عبارة بعبارة ، وأما حركاته فكانت نزغات لاضابط لها ولاهدف ، يتناول الشىء لغير داع ، ثم يلقى به من يده لغير سبب ، ويقوم ويقعد ، ويشكر ويتحسر . ثم انطلق بغتة يبكى بكاء مرا ، فما بقيت عين فى الحجرة الا ذرفت دمعها رقة لهذا المسكين .. ولما هم أحد السكان بالتسرية عنه ، وأخذ يربت على كتفيه مواسيا ، نحى يده عنه بحركة تفيض أنفة ، لم أكن أعهدها فيه والحق يقال من قبل ..

شد ماتغير الظروف من أحوال الناس وخلائقهم يأأختاه !..
لقـــد طلبت امرأته من ربة البيت غذاء ممتازا لذلك اليوم وانصرفنا الى حجراتنا ..فراح جورشكوف يدخل عند كل واحد منا برهة ، يثرثر فى غير محصل، لمجرد الحركة والـكلام ، الى أن يحين موعد الغداء ،وماكان يدخل حجرة أحد من قبل ..

فلما تم اعداد الطعام ، أقبلت عليه تلك الاسرة التى طال بهـا الحرمان اقبالا متوقعا مفهوما .فلما انتهوا منه ، قال الرجـل لامرأته :

ـ أريد أن أســتريح الآن قليلا .

ثم استلقى على الفراش ،ونادى اليه ابنتـــه فداعب بأنامله شـعرها الاثيث ، ثم التفت الى امرأته وسألها :

ـ وباتنيكا ياامرأة ، أين هو؟

فرسمت المرأة على وجهها علامة الصليب وقالت له فى ذعر:

ـ باتنيكا مات كما تعلم ..

فابتسم وقال :

ـ أجل ، أعرف هذا ، فهو الآن فى ملكوت السموات !

وأدركت المرأة ان المفاجأة السـارة هزت أعصاب الرجـل ، فقالت له :

ـ أرى لك أن تنام قليلا حتى تستريح أعصابك شيئا ما .

فاستدبرها وسـكنت حركته برهة، ثم التفت اليها ثانية وحرك شفتيه بشىء لم تتبينه ،فسألته:

ـ ماذا ياعزيزى ؟

بيد انه لم يجبها ، فاستأنت برهة ، فلما لم يقل شيئا علمت انه نام ، فقامت لزيارة ربة البيت وقضت معها فى الحديث سـاعة قصيرة ، ثم عادت الى حجرتها ،فأدهشها أن تجد زوجها لايزال حيث تركته نائما لم يتحرك فى رقدته ، فعـزت ذلك الى ثقـل النعاس، وتناولت خيطا فجعلت تغزله نحوا من نصف الساعة..

تنبهت بعدها من شرود اعتراها فاستغرقها وهى تغـــزل ، فاذا الرجل على حاله الاول ..وراعها الصمت الثقيل الذى يســـود الغــرفة ، فاقتربت من الفراش وكشفت عن زوجها الغطاء .. فاذا هو قد مات !

شبد ماهصرت قلبى هذه الميتة المباغتة .. كأنما كلفته نصقته أنفأس حياته ، وكأنما حرام على المظلوم المكروب أن يعرف لغـير الغبن والفاقة طعما ..

يابئس للدنيا ! أكذلك يمضى الناس عنها بـــين غمضة عين وانتباهتها ؟ ألا أمان فيها لشيء، ولاضمان لديها لامر ..

هل حقا يموت الناس هكذا ، بغير مقدمات ، وعلى غير انتظار ؟.

انى لحزين ..

مقار ديوفشكين

ثمالة الكأس

٢٣ سبتمبر :

صديقى الاعز :

طال عهدى بعدم الكتابةاليك،فقد حدثت شواغل حالت بينى وبين ما كنت اريده من الحديث اليك على صفحات القرطاس !

فامس الاول زارنا « بيكوف » ، وكنت وحدى هـذه المرة ، لان فيدورا كانت قد خرجت الى السوق .. ففتحت اناالباب حين طرقه ، فما وقع عليه نظرى حتى صعقت ولم احر نطقا ولا حراكا ، فدخل وهو يقهقه بالضحك على مألوف عادته ، وتناول مقعدا فاستوى عليه دون انتظار دعوةمنى .. وبقيت انا مسمرة عند الباب برهة ، ثم لذتبركن قصى ، وراء مائدة الحياكة ، وانصرفت الى عملى ، وقد علت الصفرة محياى !

فجعل يتفحصنى بنظره ، ولا شك انه وجدنى قد تغيرت كثيرا عما عهدنى منذ بضع سنين .. ثم اخذ يبادلنى حديثا سهلا ، يخالف بين عباراته بالدعابات والضحكات العالية ساعة من الزمن . فلما هم بالانصراف تناول يدى بين يديه ، وقال لى بالحرف الواحد :

ــ ارانى يا بربارة مضطرا الى الاعـتراف لك ان « آنـا فيدروفنا » قريبتك وصديقتى ، امرأة تسـتحق كل زراية ونكال ..

ثم نعتها نعتا لا استطيع كتابته اليك ، لانه مما تنبو عنـه الاسماع .. واستطرد قائلا :

ــ لقد أودت بشرف ابنة عم لك ، وافسدت حياتك ، وكنت انا فى الحالين نذلا خسيسا ..ولكنهذا قضاء جار على الاكثرين ولست فيه فريدة ..

ثم انطلق يضحك ضـحكته المدوية ، واعتذر لى بأنه رجل أعمال لا يحسن الكلام ، وان مراده من هذا الحديث ان يبين لى

حسن نواياه ، ويقظة ضميره !

وانتقل من ذلك الى مباغتتي بطلب يدى .. !

— انى رجل موسر ، وأرى من واجبى أن أرد عليـك بالزواج اعتبارك وشرفك الذى شاركت فى اهداره ..

وراح يطنب لى فى وصف مزارعه التى ينوى الاخلاد اليها بعد الزواج ، ليتفرغ للصيد والقنص .. وانجاب ذرية صالحة ترث اسمه وثروته من بعده .

وعرج بعد ذلك على ما يراه من سوء حالى ، وفاقتى ، واضمحلال صحتى .. وسألنى عن حاجتى من المال ليقضيها لى ..

وكان هذا العرض المباغت قد هز مشاعرى هزا عنيفا ، فانطلقت أنشج بالبكاء دون أن أدرى لبكائى سببا ، فظن اننى أبكى شكرا له وعرفانا لجميله الذى يسديه الى بذلك الزواج فجعل يقول لى باسما مترفقا :

— لقد كنت فى ظنى على الدوام فتاة كريمة النفس طيبة القلب مثقفة ذكية ، ولكنى لم أشأ أن أقدم على هذه الخطوة قبل ان أتثبت من استقامتك ، وحسن مسلكك ، على رغم ما تعانينه من شدة وضيق ..

ثم شرع يلقى على أسئلة شتى عنك ، فلما اجبته قال :

— انى واثق من صدق قولك ، فقد سألت عن هذا الرجل فقيل لى انه رجل مهذب وذو خلق .. وتأكدت أنه احسن القيام على شأنك وصيانة شرفك ، ولست أحب أن يثقل دينه هذا على عنقى ، فاستخبريه هل تكفى خمسمائة روبل لتعويضه عما تجشمه فى سبيلك من مشاق ..

فلما قلت له ان خدماتك لى من طراز لا يمكن أن يقدر بمال ، استشاط غضبا وجعل يتهمني بالبلاهة والخرق .. !

وانصرف بعد ان اوصانى بالتفكير فيما عرضه على من أمر

الزواج ، فهو لا يحب القرارات المبتسرة فى مثل هذه الشئون الخطيرة .. فاذا راق لى الزواج منه فبها ونعمت ، والا فانه سيكون فى حل من الزواج بامرأة من أهل الثراء والتجارة الواسعة فى موسكو ..

ودس فى يدى قبل انصرافه خمسمائة روبل ، فلما أبيت أن آخذها قال :

ــ بل خذيها لتشترى بها شيئا من الحلوى تتسلين بها فى سهرك .. وانتظرى حتى تتزوجينى ، وسترين حينئذ كيف يصير لك الشحم واللحم بعد الهزال والدوار ..

***

وقد فكرت ياصديقى فى حديثه كثيرا ، حتى أنهكنى التفكير ثم انتهيت الى قرار أخير ..

وذلك القرار يا صديقى هو القبول ..

وهل أمامى غير هذا الطريق اذا أردت استرداد اعتبارى ومحو العار عن شرفى .. ؟ انه الرجل الوحيد فى هذه الحياة الذى فى وسعه أن يرد الى كرامتى العذرية التى أهدرها ..

ثم لا تنس أن زواجى به سيقيلنى من وهدة الفقر ، ويؤمن مستقبلى ، ذلك المستقبل الاسود الذى يطل برأسه من ثنايا الحاضر الاغبر ..

وفيدورا تلح على فى القبول .. فهى فرصتى الفذة لانقاذ شرفى ، وانقاذ صحتى وضمان عيشى كذلك .. وليست مسألة الصحة من الهينات ، فأنت يا صديقى تعرف ضعف بنيتى فالعمل ينهكنى ، ولابد لى من العمل كى أعيش كما تعلم ..

واذا أفلتت هذه الفرصة الشريفة ــ ولاأقول انها مشرفة! ــ فمن عساه يتقدم لطلب يد فتاة يتيمة فقيرة تنوشها العلة وتفسد نضرتها .. ؟ !

الحق يا صديقى ان الامر لا خيرة لى فيه .. وانما هو

طريق واحد . وقد عولت على سلوك ذلك الطريق ..

واذا كنت لم أطلب اليك الادلاء برايك فى هذا الامر ، فذلك لانى آثرت أن أحمل تبعة البت فيه وحدى .. وسأبلغ بيكوف قرارى هذا منذ اليوم ..

ولست غافلة عن جميع جوانب الموضوع الذى قطعت فيه برأيى .. فأنا عالمة تمام العلم أنى لا أحب بيكوف ، وانه لا يحبنى .. ولكنى مقدرة انه يقدرنى ، وقد تبث له المعاشرة التقدير فى قلبى ، لانه فيما يقال رجل طيب شهم .. وهل أطمع فى أكثر من مودة وتقدير متبادلين .. ؟ ذلك حسبى يا صديقى من حظوظ الحياة ..

وانى واثقة من انك ستقدر الموقف حق قدره ، وستنظر اليه بما عهد فيك من الايثار النبيل .. فلا تحاول اثنائى عن عزمى فقد تألمت كثيرا لفكرة فراقك ، ولكنى وجدت العقل والحزم فى جانب القبول ، فاخترت جانب الحزم والعقل ، مطمئنة الى نبلك المعهود ..

هاهوذا بيكوف قد حضر ، فأجتزىء الآن بهذا القدر ، لانه مصر على عقد الزواج فى بضعة أيام ، فأعماله لاتسمح له بالبقاء هنا طويلا ..

بربارة

٢٣ سبتمبر :

اختى بربارة .. !

أتعجل الكتابة اليك فور وصول خطابك ، لاقول لك انه وقع منى موقع الدهشة الشديدة .. فلا شك ان بيكوف قد سلك المسلك الذى يقتضيه الشرف ، ولكن هل كان ينبغى أن تقبلى الزواج منه بهذه السرعة ، ولا أقول هذه اللهفة ؟

ولا شك عندى أيضا ان بيكوف يريد بك الخير ، وانه سيكون رفيقا بك ، وانك ستسعدين يا يمامتى وملاكى ،

بما يتهيأ لك من اليسر والرفاهة وخفض العيش ..

ولكن فيم هذه العجلة يا عزيزتى ..؟ الأن مشاغله تقتضيه التعجيل بالرحيل .. ؟

وان .. ! فليس فى العجلة خير ، لانها من حبائل الشيطان

عفوا ..! راسى يموج كخلية من النحـل ، فـقد وارينـا جورشكوف التراب صباح اليوم .. ونالنى من ذلك نصب وكمد شديدان .. فلا أدرى ماذا أرى ..أوماذا أقول لك فى هذا الامر الخطير ..

وانا يا يمامتى ، ألم تفكرى فيما يصـيبنى من فـراقـك ورحيلك عنى .. ؟ ألست جديرا بجانب من تفكيرك يا أختى وملاكى ونور أيامى .. ؟

الامر لله ، ولك يا فارينكا .. !

ستتزوجين اذن عما قريب .. وسيلزمك ولابد أن تشترى أثوابا وأحذية وجوارب ، وما الى ذلك .. انى أعرف محـلا يبيع أحذية للسيدات فى غاية الرشاقة ، كنت أشـتهى أن أشترى لك منه حذاء .. فأوصيك به يا فارينكا .. انه فى شارع « جوروخوفايا » العظيم .. الذى رأيت فيه ذات ليلة عربات الاميرات والامراء .. تمنيت أن أراك فى مثـل عزهن السابغ .. !

ولكن كلا .. ! هذا محال . ! محال أن ترحلى عنى هكذا سريعا وقد أشرقت أنوار اليسر فى حياتى بعد عسر طويل ..

تذكرى على الاقل انه يلزمك شراء كثير وكثير جدا من الاشياء فلابد من بعض الوقت تقضـيه معا فى تجهيـز هـذه العروض وانتقائها ..

وهل تثقين بصدق فراسة فيـدورا حين قالت لك انـك ستسعدين فى حياتك الجديدة مع هذا الرجل .. ؟

لقد رأيته خارجا من لدنك ، وهو فيما أرى رجل ذو مهابة .. بل ان مهابته زائدة على الحد اللائق ..

هل ستذهبين الليلة الى صلاة العشـاء .. ؟ سأذهب أنا على أمل رؤيتك هناك ، فأرجوك أن تذهبي أنت أيضا ..

لقد صدق بيكوف حين قال أنك فتـاة طاهرة ذكيـة الفؤاد سرية النفس راجحة العقل .. ولكنى أرى أنه كان خيرا له لو تزوج صاحبتـه الثـرية ذات التجارة الواسعة فى موسكو ، فهى اقرب الى موافقته ..

سأنتهز فرصة الظلام لازورك ساعة قصيرة ، فلا بد لى من حديث معك ياأختاه .. فانتظرى قدومى ..

مقار ديوفشكين

٢٧ سبتمبر :

صديقى العزيز ..

يصر بيكوف على أن أتزود بستة وثلاثين قميصـا من الحرير الهولندى ، لا تنقص قميصـا ! فينبغى أن إتبحـث لى عـن قطعتين من ذلك الحرير ، تصلح كل قطعة منها لاثنى عشر قميصا اخرى غير تلك التى اشتريتهـا أمس .. وأرجوك ان تسرع فى الحصول عليها ، لان الوقت قد أزف .. ! فسيتم الزفاف بعد خمسة ايام ، وسنرحل فى اليوم التالى ..

والحق أن هـذه العجلة قد أضنتنى ، حتى لأوشـك أن أسقط أعياء ، لولا ما امامى من الاعمال الـكثيرة .. وتراودنى نفسى على الرجوع فى الزواج ، وبهذه المناسبة تنقصنى كميـة من المخرمات (الدانتلا) للابسى الداخلية ، فلا تنس أن تشترى جانبا منها مع الحرير الهولندى

أشعر بالبرد فى هذا المسكن الجديد ، وأما عمة بيكوف العجوز فامرأة لا تطاق ، وكل شيء هنا مختـل النظام ، والخـدم على

كثرتهم مهملون ، وكثيرا مايتغيبون دفعة واحدة ، فتضطر « فيدورا » الى القيام على خدمتنا بمفردها .. ولهذا يحيرني كيف ابعث اليك بهذه السطور ، واحسب البريد خير وسيلة في الامكان ..

كدت أنسى أهم ما في الخطاب ... مر بمحل الطرزي ، واوصه ان يجعل الطرز نقشا بارزا في جميع القمصان ، لان بيكوف يصر على ان تكون ملابسي أبهى وأغلى ما تلبسه السيدات في الناحية بأسرها ..

لا تنس شيئا من هذه التوصيات يا صديقى ، وأرجو الا تضيق بكثرة المهام التى استأديك اياها كل يوم .. فما حيلتى ؟ الوقت ضيق ، ولا بد من اتمام الجهاز في بضعة ايام ، وكلما ظننت أننى انتهيت ، تذكرت أشياء كنت قد غفلت عنها .. متاعب جمة ، واما العاقبة فعلمها عند الله ، ولا احاول استكناهها من بين أستار الغيب .. فليكن ياصاحبى ما يكون .

بربارة

ثم مـــاذا

٢٧ سبتمبر

عزيزتي السيدة بربارة !

لقد قمت بجميع ما أمرتني به بكل دقة وأمانة ·· وقد فوت هذا على موعد الديوان ، ولكن لا بأس ، مادام في ذلك راحة لك من بعض ما يشغل بالك في هذه الإيام الحافلة بالمهام ·

وثقي انى على تمام الاستعداد للقيام بكل ما تطلبين ، فلا تتحرجي من تكليفي بشيء ، ولو اقتضاني أن أذرع المدينة من أقصاها الى أقصاها ·

تقولين انك تتوجسين من المستقبل ، ولا تحاولين معرفة ما يخبىء لك ·· ونصيحتي اليك ألا تدعى التشاؤم ينفذ الى قلبك، واطمئني الى أن الله سيهيىء لك كل خير في حياتك الجديدة ، فلا تقلقي ·

كم أود أن أزورك في مسكنك الجديد · بل انى حاولت ذلك مرارا ، وبلغت في مرتين منهما بالامس باب دارك ،ولكنى رددت نفسى عن الدخول في آخر لحظة ·· لأن هذا السيد بيكوف يبدو لى خشن الملمس !

مقار ديوفشكين

٢٨ سبتمبر

عزيزى السيد مقار !

أرجوك أن تذهب الى محل الجوهرى ، وقل له اننى عدلت عن صنع القرط المرصع بالياقوت واللؤلؤ ، فالسيد بيكوف يراه غالى الثمن وأعلى قيمة وأكثر بذخا مما ينبغى لنا ·

ولو رأيت غضبته أمس لهذا السرف الذى يرمينى به ، فقد اتهمنى جهرة بالتآمر على افلاسه ··

ثم انثنى بعد ذلك يلوم نفسه على التورط فى هذا الزواج ، غير مقدر أنه فتح لماله بالوعة لا تعرف الشبع ··

وقد حفزه هذا الغضب على الغاء كل ما كنا قد قررناه لحفلة الزفاف ٠ فلن يدعو أحدا ، ولن يقيم مأدبة ولا حفلا راقصا ، وما هو الا أن يعقد العقد ، حتى نرحل من فورنا الى الريف ٠

هكذا يا صاحبى بات بيكوف يخاطبنى خطاب السيد الآمر الناهى ، ولا حول لى معه ولا طول ٠

ولعله نسى اننى لم أطلب شيئا من هذا الجهاز المترف ، ولم أقترح حفلا راقصا ولا مأدبة عشاء ، فما أزهدنى فى ذلك كله ٠٠ وانه هو الذى اقترح، وهو الذى استرد ما منح ٠٠

ولكننى لا أجسر على تذكيره أو مراجعته اذا غضب، فهو رجل عنيف ٠

ترى كيف ستكون حياتى معه ؟

بربارة

٢٨ سبتمبر :

يمامتى بربارة !

لقد أبلغت الجوهرى ما طلبت لى أن أسوقه اليه من القول ٠

وأما أنا يا يمامتى فمريض لا قدرة لى منذ عدت الى البيت على مغادرة الفراش ٠ وشد ما يسوؤنى هذا يا أختاه أن ألزم فراشى فى أشد أوقاتك حاجة الى خدماتى ٠

منذا الذى يقضى لك حوائجك وأنا طريح الفراش ؟

أشعر بثقل فى أطرافى ، وتصلب فى أوصالى وأصلابى ، وتداع فى قوتى ، وما اظنه الا بردا خبيثا مما يلم بى أحيانا ٠٠

كنت أود أن أسترسل فى الكتابة ، ولكننى لا أستطيع ٠٠

مقار ديوفشكين

٢٩ سبتمبر :

بربارة ، يا صديقتى العزيزة ٠

لقيت اليوم فيدورا ، وعلمت منها ان زواجك سيعقد غدا ، وانك سترحلين بعد غد مع بيكوف ، وانه قد أعد العدة منذ اليوم

لتلك الرحلة ، فاشترى جيادا قوية وعربة فاخرة ٠

وقد راجعت « فواتير » المشتريات ، فوجدتها صحيحة ،ولكنها باهظة الارقام ٠ ان هذا لا يبرر غضب بيكوف الذى صبه على رأسك ٠ فما ذنبك انت وهو الذى أصر على شراء كل هذه الكماليات ؟

وفقك الله يا يمامتى ، وكتب لك السعادة ٠

وكنت أود الذهاب الى الكنيسة لحضور العقد ، لولا أن آلام المفاصل تقعد بى عن الحركة ٠٠

وسرنى كثيرا ما علمته من فيدورا عن سخائك وبرك بها ، فهى تستحق كل خير ، وسيجزيك الله عن هذا البر الكريم خير الجزاء

فى النفس أشياء كثيرة لا أدرى كيف أسوقها اليك . وأولها هذه الرسائل التى عشنا بها ،وسأعيش أنا بها على الدوام ٠٠ من سيتولى أمر نقلها فيما بيننا وقد بعدت بك الدار وشط المزار؟

عندى كتاب من كتبك ، أتوسل اليك ألا تسترديه ٠٠ وما بى من شوق الى القراءة كما تعلمين ٠٠ ولكن الشتاء يقترب، وليالى هذا الشتاء ستكون طويلة موحشة ثقيلة الوقع على نفسى ، وأنا أنظر من نافذتى فلا أرى النور يشرق لى من نافذتك ٠٠ أقصد ان هذا الكتاب قد يذهب عنى بعض ما سأجده من السأم فى ليالى الشتاء المقبل ٠٠

أتدرين يا أختاه أننى فكرت فى حل بديع لمسألة سكنى ؟ سأحل محلك وأشاطر فيدورا ذلك الطابق ، وسأجعل مقامى فى غرفتك ، ولن أبدل من حالها شيئا ٠٠ فقلبى لا يطاوعنى على ترك فيدورا المسكينة فريسة للوحدة بعد رحيلك ٠٠

لقد دخلت حجرتك السابقة أمس ، فرأيت كل شيء كما تركته : قطعا من القماش متناثرة فى كل مكان ، وآلة الحياكة فى موضعها ، وسريرك الصغير يا يمامتى خلف الستار ٠٠ وورقة فيها سطر واحد :

عزيزى مقار ديوفشكين ..

وليس فيها غير ذلك السطر شىء .. وأحسب طارئا أزعجك عن اتمام ذلك الخطاب ..

وداعا يا يمامتى ، ولا تبطئى فى الرد عـــلى خطـابى ، لأن الانتظار أليم

مقار ديوفشكين

الصرخة الأخيرة

٣٠ سبتمبر :

صديقى العظيم .. !

قضى الله ولا راد لقضائه ، ونفذ السهم وسبق السيف العذل .. ! ذلك ياصاحبى كل ما أعرفه من أمرى ، أما ما سيكون ، فأنا مفوضة أمرى فيه لله ،وهو وليي ونعم النصير .

سنرحل غدا ياصاحبى ، فهذا وداعى الاخير اليك يا خير البشر نفسا واذكاهم قلبا . ويا من اذا عددت نعمك على ، وأياديك لا احصيها .. فقد كنت أبى وقد يتمنى الدهر .. وكنت امى وقد سلبنى القدر عطف الام ..

واستحلفك بالله الا تحزن لفراقى ، وانشد راحة بدنك وقلبك ما استطعت ، ولكن لا تنسنى أيها الصديق الكريم ..

أما أنت يا صاحبى فستكون شغلى الشاغل ، أدعو لك الله اذا صليت ، وأذكر بالخير عهدا كان أشأم العهود لولا عطفك وبرك ..

وانى موقنة يا مقار أن ما من انسان احبنى فى هذه الدنيا سواك .. فقد رأيتك تكترث لايسر همومى ، ولا ترى النور الا فى ابتسامة شفتى ووميض عينى .. وكانت عبارة واحدة اكتبها اليك تنسيك هموم الحياة، وتملأ بالغبطة جوانحك المطوية على النبل وحب الخير ..

ترى كيف ستكون ايامك ياصديقى الكريم من بعدى ؟ من سيسأل عن حالك اذا أصبحت أو أمسيت .. ؟

لقد تركت جميع رسائلك فى خوان فيدورا . . فخذها ، واحتفظ بكل ماتجده فى غرفتى . . ولا سيما الخطاب الذى بدأته اليك ولم أتمه . احتفظ به ياصديقى ، لتتمه بعين خيالك كلما ذكرت ماضى أيامنا التى اصطلحت عليها الاحزان فلم تطفىء نور حبنا الطاهر ..

وداعا أبديا يا صديقى .. ! لقد وددت أن أراك قبل رحيلى، وان أقبلك أيها الاب والاخ والصديق ..

الا ما أكأب ساعة الوداع أيها الحبيب . . وما أثقلها على روحى المروعة لفراقك ..

هاهوذا بيكوف يناديني . . فمعذرة ووداعا .. !

صديقتك الباقية على حبك

برباره

٣٠ سبتمبر :

ڤارينكا .. ! أختى ويمامتى ڤارينكا .. !

أخذوك منى يا يمامتى ، ومضوا بك الى حيث لا أراك ، ولا يبلغ بى الركاب .. فليتهم نزعوا حشاشة روحى قبل أن ينتزعوك منى هذا الانتزاع الوجيع .. ولكنهم تركوا روحى للعذاب ، ومضوا بك يا حبيبتى الى حيث لا أقدر أنا أن أمضى

لقد رأيت آثار الدموع على خطابك يا ملاكى .. فأنت اذن تبكين .. أنت اذن شقية بهذا السفر البعيد ، فلماذا اذن رحلت يا ملاكى .. ؟

لقد بكيت يا حبيبتى جزعا لفراقى ، واشفاقا على قلبى المدنف ، فأنت اذن تحبيننى يا ڤارينكا .. فكيف اذن تعيشين مع من لا تحبين .. ومن تحبين يقاسى أهوال البعاد .. !

سيشقى قلبك الطاهر الغض بهذه الحياة التى تتخمها أغذية الجسد ، وتنقصها أنسام الروح ، وليس بالخبز وحده يحيا الانسان ..

سيأكل السأم فؤادك ، وتضيق نفسك بهذه الوحشة ، ولن تجدى فى ذلك الفقر الروحى الا الهم والكمد ..

لماذا اخترت ذلك الطريق أيتها اليمامة .. ؟ لماذا ارتضيت الوقوع فى مخالب الصقر .. ؟ لماذا آثرت القبول فجنيت على

قلبك الجناية التى ليس مثلهــا جناية .. فانه لن ينتظرك فى ذلك المكان الموحش مصير سوى القبر البارد المظلم ، ولن تجدى هناك من يبكى شبابك الغض ، لان بيكوف لديه من شواغل المال والصيد ما يشــغله عن الحب والبكاء ..

سحقا لى وتعســـا ... ! ماكان اغبانى وأعمانى .. ! لماذا لم أحل دون هذا الزواج المشئوم .. ؟ كان ينبغى أن أقاومه بكل قواى .. ولكن سبق الســيف العذل كما قلت .. ونفذ السهم وقضى الله ولا راد لقضائه . .

كلا .. ! بل يجب ان أرد ذلك القضـــاء ، غدا سأقــوم من فراشى مهما كانت الحال ، وسألقى بنفسى تحت عجلات العربة كى أحول دون رحيلك الى ذلك البلد النازح ..

سأجرى وراء العــربة ، سأعدو خلفهــا طــول الطريق اذا أبيت أن تأخذينى معك الى هناك . . وسأظل أجــرى حــتى تفارق روحى جسدى ..

الى من ياحياتى سأكتب بعد اليوم رسائل أشواقى وخواطرى اذا جن الليل واجتوانى الصديق ..!؟

من سأناديها اذا حزبنى الامر « يا اختاه » فتطمئن روحى ، وتتبدد وحشتى ، ويطيب لى الرقاد .. ؟

أنت قاتلتى يا فارينكا بهــذا الفراق ولا ريب ! فلن يصــمد قلبى لهذا البلاء المبرح ، وقــد كنت عاصــمه قبل اليــوم من القنوط والموت ..

من أجلك يايمامتى كنت أحيا .. فلماذا أعيش الآن .. ؟ ! وقد كنت لى الابنة والاخت والام الرؤوم ..

لا تسافرى يا فارينكا ، فالرحلة شاقة ، وصحتك معتله ، والطقس ردىء .. هاهوذا المطر ينهمر ، فاياك أن ترحلى فى هذا البرد الشديد ..

رباه .. ! لماذا لم يتزوج بيكوف صاحبته الثرية فى موسكو فيتركك لى .. فأنا ليس لى فى الدنيا سواك .. انت نور أيامى فاذا ذهب النــور فكيف أبصر الطــريق ، وكيف أســتطيع أن أعيش .. ؟

أمصرة انت على الرحيل مع هذا السيد بيكوف .. ؟

وا أسفاه .. !

اكتبى لى خطابا آخر يا قارينكا ، خطابا واحدا فقط ..

رباه .. ! كيف أصــدق أن خطابها هذا هو الخطاب الاخير ، وان يوما سيمر بى دون أن أرى روحهــا مســطورة أمامى على صفحات القرطاس .. ؟

أهكذا انتهى كل شىء يا يمامتى وابنتى واختى وملاكى ؟ !

الا ما أهون الحياة ...

